منهجية الفكر الإسلامي .. القواعد والأسس

د. عبد الحميد أبو سليمان

في ظل الظروف الحضارية للفترة الأولى من الحضارة الإسلامية أدّت طاقات العقل المسلم وإطار المنهج الأصولي دورهما على تعاظم في القصور بمضي الزمن وتباعد الظروف الزمانية والمكانية لواقع الأمّة وتحدّياتها عن ظروف وممارسات الصدر الأوّل، وممارسات السنّة النبوية على عهد الرسالة ونزول الوحي.

وأمكن لذلك العقل وذلك المنهج أن يفجّرا رغم كل الظروف والعقبات التي جابهها الإسلام والمسلمون، قدراً هائلاً من الطاقة الإسلامية، وضعت الإنسان والعقل الإنساني في إطار جديد، وفتحت أمام العقل الإنساني المسلم آفاقاً فسيحة من العمل والإبداع، وقدّمت للإنسانية تراثاً وفكراً حضاريّاً تنظيمياً وقانونيّاً وعلميّاً غير مسبوق، أضاء حلكة الأفق الإنساني الذي خيّمت عليه الخرافة والضلالات والأوهام والجور والخسف والحرمان من الحقوق والحريات الإنسانية كافة.

وبتباعد الزمن وتغيّر الأحوال وتعاظم الهوّة بين الغاية الإسلامية والالتزام الإسلامي وبين القيادات السياسية الاجتماعية، وبمزيد من العزلة للفكر الإسلامي والعلماء المسلمين، أخذ الأثر الإسلامي يضعف والعطاء الإسلامي يتضاءل، وساعد على التدهور ومكّن له انعدام التحدّي الحضاري للأمّة الإسلامية والحضارة الإسلامية، فهي رغم تدهور أوضاعها بقيت لعدّة قرون أفضل حالاً وأقدر من سواها.

وببروز التحدّي الغربي الأوروبي في القرون الأخيرة أصبحت الأمّة الإسلامية مرغمة على إعادة النظر في أحوالها وامتحان قواعدها ومنطلقاتها ومناهج فكرها وأنظمتها .

وبمضيّ الوقت ، وأمام تعاظم أعداد أفراد الأمّة وتعدّد شعوبها ، وتعاظم التحدّيات التي تواجه كيانها ووجودها ومقدّراتها ، وأمام تعاظم المخاطر الناجمة عن الأمراض الحضارية التي تفشّت في كيان أمم الغرب ومجتمعاته في الوقت الحاضر ، ممّا أصبح يهدّد بالدمار ليس الأمم الغربية وحدها ، بل الإنسانية جمعاء معها ، لكل هذا لم يعد أمام الأمّة الإسلامية إلّا أن تعيد النظر في كيانها وفكرها وقواعد منطلقاتها بعد أن ثبت لكل ذي عقل أن أدوار الأمّة والتحدّيات التي تواجهها لم تعد تجدي معها المعالجة الفكرية السطحية ، ومجرّد التصدّي العسكري والسياسي والعاطفي الفاشل ، وكان لابدّ أن تسقط أمام هذا الواقع المرّ كل أقنعة الكهانات والمصالح الزائفة والنزعات التقليدية المحافظة ، حيث لم يعد لدى الأمّة ـ وهي على ما هي عليه من الضعف والتخلّف والمعاناة ـ ما تخشى عليه وما تخاف ضياعه إلّا آلامها ومعاناتها وتمزّقها وضعفها .

ومسؤولية الأمّة الحضارية هي مسؤولية أمام الذات والتاريخ ، وأمام مسؤولياتها المقدّسة في الخلافة والإصلاح التي تنبع من رسالتها منطلقاتها الإسلامية السامية التي أهّلتها لكي تصنع أُسس الحضارة الإنسانية المعاصرة .

إنّ الحضارة الغربية إنّما بُنيت على منطلقات رسالة الإسلام وتراث الحضارة الإسلامية التي أعطت الكثير الأصيل الذي ساهم في إصلاح الكثير من منطلقات الحضارات الإنسانية قبلها ، ونرى أثر ذلك واضحاً في الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي والفكري والعلمي الذي أخذته أوربا عن الأمّة الإسلامية والحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي .

فقد جاس الغربيون أرض الإسلام وفكره وإنجازه ودرسوه وتعلّموه في الجامعات الإسلامية وفي المكتبات الإسلامية وفي الترجمات الإسلامية . يشهد عليه فكر عصر النهضة الأوروبية وتراثه وإصلاحاته الحضارية ، بل إنّ كثيراً من معاناة الغرب وأمراضه الاجتماعية ، خاصّة في محيط الصحّة النفسية للفرد والأسرة التي يعاني منها اليوم ، إنّما ترجع في رأينا إلى تخلّي الغرب عن كثير من

منطلقات ومفاهيم الإصلاحات الاجتماعية والأخلاقية التي استمدّها من الحضارة الإسلامية، وذلك بعد أن اشتدّ عوده، وأخذه الغرور، وظنّ أنّه لم يعد في حاجة إلى ما استمدّه من حضارة الإسلام من قيم ومفاهيم وتقاليد، وأنّ قدرته وطاقته المادية إنّما تنبع عن فضيلة ذاتية ترجع إلى التراث الوثني اليوناني والروماني، وإلى التراث الخرافي المسيحي الوسيط، مستقلاً عن الحضارة الإسلامية وقيمها ومنطلقاتها، التي أخذ عنها واستوحاها في إصلاحاته الفكرية والعلمية والاجتماعية. ونرى أثر ذلك اليوم واضحاً في محيط الحياة الاجتماعية والأسرية المتهدّمة المتفجّرة، كما نراه في انعدام الالتزام الأخلاقي في ميدان العلم والتقنية والسياسة بما أصبح واضحاً لكل ذي عينين أنّه أمر يهدّد كيان الغرب من الداخل والإنسانية قاطبة من الخارج.

ومع ما عليه الغرب اليوم، ومع ما عليه حال العالم اليوم لم يعد أمام إنسان هذا العصر، ولم يعد أمام الأمّة الإسلامية إلّا الإسلام ومنطلقاته لتعيد ركب الأمّة والإنسانية من جديد إلى الصراط المستقيم، وإعادة التوازن والسلامة إلى مسيرة الإنسانية والحضارة على أساس منهاج الحق والعدل والغاية الأخلاقية القويمة، تبني ولا تهدم، وتصلح ولا تفسد، وتحقّق مشيئة الله في الإصلاح والإعمار.

وللحديث عن المنهجية الإسلامية في الفكر والحياة؛ لابدّ أوّلاً من رسم الإطار الكلي لهذه المنهجية، ومعرفة مصادرها ومنطلقاتها الأساسية حتى يمكننا بعد ذلك مواصلة العمل العلمي والحضاري في المجالات الحياتية والاجتماعية والحضارية المختلفة. وبذلك نؤهّل العقل المسلم لكي يؤدّي دوره في إعادة بناء كيان الحضارة الإنسانية، وإعادة ترتيب أولوياتها وصياغة علاقاتها مجدّداً باتجاه الخير والإصلاح والأمن والسلام.

ونبدأ بالبحث في قضية من أهم قضايا المنهجية الإسلامية وهي قضية الإطار الكلّي للمنهجية التي يدور فيها الفكر الإسلامي ويتحرّك من خلال دائرتها.

١ ــ إطار منهجية الفكر الإسلامي ومعارفه:
تكامل الغيب والشهادة

من المهم جدّاً فهم الإطار الإسلامي الأشمل للحياة والوجود لنفهم الفكر الإسلامي والمنهجية الإسلامية ومحيط حركتهما، ولنفهم كذلك العلاقات والمفاهيم والمنطلقات الأساسية التي تنظم الفكر والمنهجية وبناء الحياة الإسلامية وتميّزها.

ومفهوم الغيب والشهادة في الإسلام ووضوح هذا المفهوم وأبعاده في العقل والمنهج المسلم ، له أهمية قصوى إذا أردنا فهم طبيعة الفكر الإسلامي ومنهجيته ، وفهم معنى الحياة الإسلامية ، والوجود الإنساني ، والعلاقات والغايات الإنسانية ، التي يسعى الإسلام والوجود والإصلاح الإسلامي إلى تحقيقها .

مفهوم الغيب والشهادة في الإسلام هو المفهوم الذي يحدّد معنى الحياة والوجود ، وغاية الحياة والوجود ، وعلاقة ذلك بما وراء الحياة ، وما وراء الوجود ، وما وراء المادّة .

مفهوم الغيب والشهادة هو الإطار الأشمل الذي يحدّد معنى الوجود الإنساني ومعنى العقل الإنساني ودوره في الحياة الإنسانية ، وحدود هذا الدور ومجالاته .

ومفهوم الغيب في الإسلام يمثّل إطار الإجابة الإسلامية على السؤال الأشمل عن أصل الحياة والوجود وغايتهما ويحدّد بذلك معنى العلاقات الأساسية لهما .

عالم الغيب هو عالم يختص به علم الله وحده يوحي بما يشاء من أمره على من يشاء من عباده ، ويرسلهم بالرسالات إلى الأمم هداية وتبصيراً لمعنى وجودهم ، وغاية هذا الوجود ، وعلاقاته ومآله .

وعلاقة الإنسان وفق مفهوم الإسلام بعالم الغيب هي علاقة خيّرة بنّاءة ، تهدف إلى إقامة الحق والعدل في الحياة الإنسانية وإعمار الأرض وصيانة الكائنات والأرض من الفساد .

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسنُ عملاً ﴾(١) .

﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾(٢) .

ويمكن تلخيص أهم مبادئ عالم الغيب ومعطياته للإنسان فيما يلي :

- الوجود له غاية خيّرة أخلاقية ولم يخلق عبثاً : **﴿ أفحسبتم انّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون ﴾**(٣) .

---

(١) الملك : ٢.　　(٢) النحل : ٩٠.

(٣) المؤمنون : ١١٥.

ـ علاقات الوجود الكلّية ومنطق هذه العلاقات هي فيما وراء طاقة العقل الإنساني والمنطق الإنساني والإدراك الإنساني .

ـ أهم معطيات عالم الغيب فيما يخصّ الإنسان هو وجود الله سبحانه وتعالى الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد الحق العدل الأوّل الآخر الذي ليس كمثله شيء وهو بكل شيء عليم .

ـ الدار الآخرة والبعث والنشور هي محصلة حساب ثواب وعقاب على ما قدّمت يد الإنسان في هذه الدنيا ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر .

ـ إنّ الدنيا هي مجال عمل وإعمار وإصلاح ، سُخِّر كل ما فيها من كائنات لإرادة الإنسان في مهمّة خلافته في الأرض ، والسعي إلى إعمارها وإصلاحها ، وتسخير كائناتها بإرادته الخيّرة إفادة ورعاية واستصلاحاً وإحساناً ، لا غلوّاً ولا عتوّاً ولا فساداً.

ـ الإرادة الإنسانية من علم الله ، ومن أمر الله ، ومن إعجاز خلق الله وعظيم قدرته ، خلقها كما خلق كل شيء وبمشيئته ، ميّزها وشرّفها بحرية التوجّه ، ووهبها حرية القرار إلى الخير أو إلى الشر ، إلى الإصلاح أو إلى الإفساد ، إلى القيام بمهمّة الخلافة والرعاية والإصلاح والإعمار أو إلى الشر والإفساد والغلو والإسراف والاستكبار والطغيان توقّياً وتزكية أو فجوراً وتدسية .

ـ الهداية والضلالة في الحياة الإنسانية مصير فرديّ سبق في علم الله حين وهب الله الإرادة الحرّة للإنسان ، أي النجدين ، يسلك طريق الخير والحق والهداية ، أم طريق الفساد والضلالة والطغيان .

ـ خلق الله الإنسان ووهبه العقل والعلم وكرّمه بمركز الخلافة في الأرض وأعلى منزلته بقدرة العلم وحرية الإرادة مميّزاً له ومكرّماً له على الكائنات كافّة ، فإن اهتدى بإرادته الحرّة فهو الأكمل والأفضل وأحسن الخلائق تقويماً ، وإن ضلّ وفسد كان بفساده وضلاله واختياره في أسفل السافلين .

ـ خلق الله الكون والكائنات والحياة والأحياء وفطرهم على سنن وقوانين وأسباب ، وفي طلب الأسباب تكون الأفعال والأعمال ، وتتحقّق الغايات ، وتعبّر الإرادة الإنسانية عن عزمها وتوجّهها ، ودون طلب الفعل وطلب الأسباب لا تكون الإرادة ، ولا يكون

العزم ، ولا تتحقّق غاية ولا تعبير .

ـ مسؤولية الإنسان في هذه الحياة وفي هذه الأرض هي في القيام بمسؤولية الخلافة والإعمار ، وتسخير الكائنات ورعايتها ، وذلك بطلب الأسباب والسعي في سبيلها . ومسؤولية الإنسان هي في طلب السنن والأسباب ، لأداء الأمانة وإرضاء الحقّ سبحانه وتعالى إيماناً به وبالغاية التي خلق الله الإنسان لأدائها ، وإيماناً وإنفاذاً لقضاء الله فيما أمر به وفيما نهى عنه ، وثقة بقدره سبحانه وما أودعه في الكائنات من نواميس وسنن . والمؤمن بعد أداء مسؤوليته في طلب الأسباب والسعي بكلّ الجد ، وفق النواميس والسنن ، يؤدّي واجبه وأمانته ، وهو بعد ذلك يتوكّل على الله صاحب الأمر وعالم الغيب ومسيّر الكون ، إيماناً وثقة بحكمته ، فكلُّ قدَرِ الله بالعبد المؤمن بعد أن يؤدي دوره ويحمل مسؤوليته في طلب الأسباب إنّما هو خير له في الدنيا والآخرة . والإنسان ينصرف بقلبه وجوانحه إلى الله صاحب الأمر ، والثقة به طلباً لمرضاته تعالى ليقبل عمله ، وتحقيقاً لغايته الخيّرة . وعدل الحق سبحانه وتعالى ، وكلياته الربّانية وحكمته الكلية هي ضمان نجاح عمل المؤمنين الكلّي ، وسعيهم بالأسباب في خلافة الأرض ، وهي ضمان ثواب العبد المؤمن في الدنيا والآخرة بما تقضي به حكمته وعدله ورحمته .

ـ الإنسان المؤمن يقوم بحق الخلافة ويسعى في الإصلاح والإعمار وفق الفطرة والسنن ، ويؤدي المسؤولية الملقاة على عاتقه في العمل والجهاد وطلب الأسباب من منطلق الإيمان بالله والثقة بحكمته وعدله ورحمته ، ولذلك فالمؤمن يعقل ويتوكّل ، ويفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، بصيراً بنفسه وأدائه ومسؤوليته ، فإيمانه سعي ، وسعيه إيمان، ولذلك فهو في أدائه في طلب الحقّ وفي السعي بالإصلاح ، وفي أداء حقوق الخلافة والإصلاح والإعمار يطلب الأسباب ويثق بالله ، ولا يخاف ولا يخشى سواه ، يتوجّه إلى الله ويتوكّل عليه واثقاً في العاقبة بفوز المؤمنين في الدنيا والآخرة ، ولذلك فالمؤمن الحق الواعي لمعنى إيمانه بالله وحكمه وقضائه وقدره يكون أشدّ الناس حرصاً على العمل بسنن الله في الأرض وخلافتها . وهو بذلك لا يلتفت إلّا التفات تمحيص وإتقان إلى جزئيات حركة الأداء والسعي ، لا يبطره الفوز ، ولا يخذله الفرح ، لأنّه يعلم أن ذلك مناط الامتحان والابتلاء ، ويصدر عن حكمة الله البالغة وكليّاته الربّانية في تسيير الكون ودفع الناس وتمحيصهم ، ولذلك فما يصيب المؤمن في حركته وسعيه كلّه خير في الدنيا والآخرة ، ويظلّ مناط حركة المؤمن وحياته ،

مسؤولية العمل وجدية السعي وطلب الأسباب ، وأن أمر المؤمنين العاملين المؤدّين لأمانتهم ومسؤولياتهم إلى خير وإلى نجاح وإلى تمكين ، فوعد الله للمؤمنين ناجز ما وفوا بالأمانة والمسؤولية وما أحسنوا الإيمان بالقضاء والقدر والأداء في العمل والسعي وطلب الأسباب والسنن ، ولا يكون في عقيدة المؤمن وواقع حركة الحياة المسلمة غير ذلك ، فما نصر المؤمنون الله بحسن إيمانهم وحسن أداء مسؤولياتهم إلّا نصرهم ومكّن لهم واستخلفهم ، فذلك عهد الله وتلك سنّته ، وذلك إيمان المؤمن الفطن ، ﴿ **إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبّت أقدامكم** ﴾(٤) .

- العقل الإنساني والإدراك الإنساني مؤهّل للحياة في هذه الأرض وأداء واجبات الخلافة في الإصلاح والإعمار ، وهذا العقل وهذا الإدراك هو أداة الإنسان الأساسية وميزته الكبرى لحمل مسؤولية المهمّة الملقاة على عاتقه في هذه الحياة ، واستخلاف الكون وإعماره والسعي فيه بالإصلاح . ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة... قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم** ﴾(٥) . فكان مؤهل الإنسان للخلافة هو العلم ، والعقل أداة العلم ووسيلته في عالم الشهادة على هذه الأرض .

- الوحي هو المصدر الإلهي الذي يمدّ الإنسان والمعرفة الإنسانية بحاجتها من علم بشؤون الغيب وعلاقاته وغاياته الكلية ، وعلاقة الإنسان بهذه الكليات والغايات . والعقل هو أداة الإنسان للعلم والمعرفة والأداء في هذه الأرض ، وهو عالم الشهادة ، وذلك تحقيقاً لمهمّة الخلافة وغايتها في إقامة علاقات الحق والعدل والإحسان .

- الوحي والعقل بهذا المفهوم يتكاملان لتحديد موقع الإنسان في عالم الشهادة وتمكين وجوده وسعيه من تحقيق الغاية منهما في عالم الشهادة . فالوحي يمدّ الإنسان بالمعرفة الكلية والغايات الربّانية فيما لا يملكه من معرفة أو إدراك ممّا هو وراء علمه وإدراكه ، فيستكمل الرؤية والمعرفة ليهتدي إلى الغايات والمقاصد ، ويحقّق اليقين ، ويستجيب لدواعي الفطرة وتوجهاتها في ثنايا بنائه وكيانه . وبهذا يكون الوحي الصادق الموثق هو وسيلة الإنسان إلى الغايات والكليات ، والعقل هو وسيلة الإنسان في العلم بعالم الشهادة ، وما ينطوي عليه هذا الكون من شؤون الفطرة من سنن وطبائع وإمكانات ليسخّرها ويقوم على أمرها بالإصلاح والإعمار ، على ما يقتضيه التوجيه الإلهي والغاية الإلهية الخيّرة .

---

(٤) محمد: ٧.	(٥) البقرة: ٣٣ .

ـ من منطلق الفطرة ، ومن منطلق الإيمان البصير بوحدانية الله وهداية الوحي ، لا مجال في الرؤية الإسلامية لتعارض الوحي والعقل والكون ، فالوحي يختص بعالَم الغيب وكليات الوجود وغاياته ومقاصده في الكون والحياة وذلك من أمر الله ، والسعي فيه على غير ما أراد الوحي ضلال وظن واستكبار . السعي والإذعان لما جاء به الوحي من الحق هو الذي يميّز بين العلم الخيّر ، والعلم الفاسد . هذا المقياس هو الذي ميّز بين علم الملائكة ومنطقهم الراشد ؛ وعلم إبليس ومنطقه الفاسد : ﴿ **قالوا سبحانك لا علْم لنا إلّا ما علَّمتنا** ﴾[٦] . وقال إبليس مستكبراً بما يعلم من تفوّق مادّة خلقه : ﴿ **خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾[٧] . وقال : ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[٨] . وقال الله بعلمه الكلّي وقدرته الشاملة : ﴿ **إنّي أعلم ما لا تعلمون** ﴾[٩] .

فالعقل والمنطق والإدراك الإنساني هو عقل صحيح وهو عقل راشد إذا وجّه سعيه نحو عالم الشهادة وسعى إلى حمل مسؤوليته في أداء دوره في خلافة عالم الشهادة على ما سدّد الله به رؤيته من علم عالم الغيب بتحديد الغايات والمعايير بالمصائر والعواقب تمكيناً للإنسان في الأرض ومسؤوليته في تسخيرها وإعمارها على وجه العدل والإحسان . وبهذا الإطار الكامل المتكامل بين علم الغيب وعلم الشهادة ، وبين الوحي والعقل والكون ، لم ينصرف الصدر الأوّل من رجال الإسلام إلى سفسطات الخوض في قضايا الغيب ، ووجدوا حاجتهم كاملة فيما جاء به الوحي بشأن الغايات وتحديد المعايير ، تسديداً وهداية وتوجيهاً للإنسان وعقل الإنسان في وجوه عالم الشهادة كافّة علماً وسعياً وبناءً وتسخيراً وإعماراً .

ـ في الإطار الإسلامي الأشمل ، المبني على حقيقة التوحيد والوحدانية ، يتكامل الغيب والشهادة ، ويتكامل الوحي والعقل والكون ، ويتكامل الإيمان والعمل ، ويتكامل التوكل والسعي ، وتتكامل عقيدة القضاء والقدر والثقة بالكليات الربّانية والأوامر الإلهية ، مع تمام جدية السعي في فهم وعلم السنن والفطرة والأسباب وطلبها والحرص الأكمل عليها ، فذلك مسؤولية الإنسان ، ووسيلة إرادته في تحقيق غاية وجودها وصدق إيمانها وتسليمها لأمر الله ومشيئته ، ولذلك قرن الله الإيمان ـ وهو مناط قصد النيّة ـ بالصالح من العمل في كل موضع من القرآن الكريم في حديثه عن ﴿ **الذين آمنوا**

---

(٦) البقرة : ٣٢.
(٧) الأعراف : ١٢.
(٨) الاسراء : ٦١.
(٩) البقرة : ٣٠.

وعملوا الصالحات ﴾[١٠]، بكل ما تعنيه كلمة الصلاح من معاني موضوعية الفهم، وجدية السعي والطلب على أساس الحق كما أمر الله به في الوحي، وأقامه في النواميس والسنن من أن الصلاح لا يكفي فيه حسن النيّة والقصد، فذلك المعنى تكفّل به معنى الإيمان بالله والتوجّه إليه في صدر التعبير والوصف القرآني في الآية، وإنّما هو ينصرف فيما وراء ذلك إلى السعي الموضوعي في طلب الأسباب وحسن الأداء والعمل.

ومن هذا نخلص إلى أن العقل المسلم عقل ينصرف إلى عالم الشهادة وشؤون الحياة والكائنات، يسعى إلى تسخيرها وتنظيمها ورعايتها وإصلاح شأنها على أساس من المعرفة الموضوعية بأحوالها ووقائعها وطبائعها، وما أودع الله فيها من سنن ونواميس تحقيقاً لمعنى الخلافة وفق توجيه الوحي وأوامر الحق ومقاصد الشريعة وأحكامها المنزلة. ولا مجال للعقل المسلم لإضاعة الوقت والجهد فيما لا طائل تحته، من شؤون عالم الغيب وما يتعلّق بذات الله، وكليات أمره، إلّا بما جاء به الوحي ونزلت به الرسالة، وما ضعف العقل المسلم إلّا حين ضعفت رؤيته وتبلبلت، وانصرفت عمّا يُسّرت له من عالم الشهادة، والسعي في علم الكائنات والطبائع وتدبيرها وتسخيرها، وذلك لكي تخوض في غير ما أُهّلت ويُسّرت له من شؤون الكليات والإلهيات وأمور عالم الغيب.

إن العقل المسلم لكي يسترد عافيته عليه أن يستعيد رؤيته الإسلامية الكاملة المبنية على التوحيد والوحدانية، والتي يتوجب فيها الغائية، وتتوجب فيها السببية، ويتوحّد فيها الغيب والشهادة ويتكاملان، ويتوحّد فيها الوحي والفطرة (العقل والكون) ويتكاملان، وبذلك ترشد مسيرة هذا الإنسان وهذا العقل، ويجد سعيه ويتحقّق له وعد الله بالقدرة والنصر.

بعد هذا ننتقل إلى قضية هامة أخرى من قضايا المنهجية الإسلامية وهي قضية مصادر هذه المنهجية وهذا الفكر وما بينهما من علاقة تساند وتكامل.

٢ ـ مصادر الفكر والمنهجية الإسلامية: الوحي والعقل والكون

الوحي كمصدر للمعرفة والتوجيه في حياة الإنسان يقصد به عموماً كلمة الحق التي أوحى الله بها إلى الأنبياء والرسل، لكي تبلغ ما أمر به إلى الأمم. والوحي كمصدر

---

(١٠) العصر: ٣.

للمعرفة والتوجيه الإسلامي يقصد به كلمة الله وإرادة الحق التي أوحى بها إلى نبيّه ورسوله محمّد ﷺ ليبلغها إلى الناس كافّة ، رسالة خاتمة كاملة شاملة ، هداية للناس وإرشاداً إلى معنى وجودهم وغاية هذا الوجود ، وتبياناً للمقاصد والمبادئ والقيم والأحكام التي ينبغي لهم أن يلتزموها لتحقيق غاية وجودهم وبلوغ مقاصد أعمالهم وعلاقاتهم . وجوهر ما يقدّمه الوحي للناس هو توضيح طبيعة علاقة الإنسان بالله ، وغاية وجود الإنسان في الكون ، ودليل حركة الإنسان في الحياة ، ومصير هذا الإنسان فيما وراء الحياة .

فالإنسان هو أكرم خلق الله إذ ميّزه وكرّمه بالإرادة وقدرة التصرّف والتسخير للكون والحياة ، ووهبه العقل وما أودعه فيه من فطرة للإدراك والتدبّر والتدبير وتصريف الحياة والمقدّرات وفق ما علمه من نواميسها وأسبابها ومسبباتها ، فيعلو ويحسن طواعية بالتزام الحق ، وينحطّ ويطغى ويفسد باجتناب الحق واتّباع الهوى .

فعلاقة الإنسان المخلوق بالله والمتصرّف في الحياة والكون علاقة إرادة وإدراك وخيار هي في أصلها علاقة تعبيد وتذليل ، وعلاقة خلافة وكرامة ، فتوجّه الإنسان إلى الله واتّباع أوامره واجتناب نواهيه هي علاقة إعلاء وكرامة وإعزاز لأنّها استحواذ وبلوغ وتحقيق لما هو حق ، وما هو خير ، وما هو حقيقة ، وما هو طريق قويم ، وما هو غاية كريمة عزيزة يسعى إليها الإنسان القويم ويطلبها ويسمو بطلبها وبلوغ آفاقها ، ولا مجال في الفهم الإسلامي في هذه العلاقة لمعاني المذلّة والصغار والاستغلال . فهي علاقة أصلها المحبّة والتطلّع والشوق والاعتزاز والكرامة والقوّة ، تلمس هذه الآفاق والأبعاد والقيم في شخصية الرسول الكريم وأصحابه الكرام قبل أي أحد آخر من الخلق ، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ : **«لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**(١١) ، **«لَلّهُ أشدّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلّها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده»**(١٢) .

ويقول الله سبحانه وتعالى : **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ﴾**(١٣) ، وقال : **﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ﴾**(١٤) .

---

(١١) رواه البخاري ومسلم.
(١٢) رواه مسلم.
(١٣) البقرة : ٣٠.
(١٤) الإسراء : ٧٠.

ويجب أن لا يغيب عن بالنا سبب كرامة الإنسان بين الخلائق وموضع الإنسان من الخلق ، والحكمة الربّانية العليا في خلق الإنسان وتمكينه في الأرض ، وهي تلك الصفة العلوية الأسمى التي ميّزه بها ، وهي صفة الإرادة الحرّة وقدرتها على التوجّه والهداية بالخيار الحرّ الذاتي ، وأن ذلك هو الذي جعلها موضع قسم الخالق جل وعلا حين يقول: **﴿ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها﴾**[١٥].

والإنسان بعصيانه وفساده وانحرافه عن الحق هو الذي ينال من نفسه ويظلمها ويغوص بها في وحل المعصية والفساد والطغيان ، ويأخذ بها إلى مكانة الذل والشقاء في علاقتها بالحق ، يوم يقوم الناس لربّ العالمين . ولهذا يجب أن لا نخلط بين مكانة العزّة والكرامة ـ التي هي للإنسان الصالح : **﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون ﴾**[١٦] . والذي هو أهل للمثوبة والتكريم ـ وبين الخطاب الإلهي إلى القساة المستكبرين والعتاة والجبابرة ، والذي أراد الله به كسر عناد المتكبرين ، وكشف ما هم فيه من وهم ومن زيغ وكفر وضلال ، من أمثال جفاة العرب وطغاتهم والمتجبرين من رجالاتهم ، كأبي جهل وأبي لهب ، فلا يصحّ أن ننسى معاني خطاب التكريم وألّا يبقى في أذهاننا وفهمنا إلّا خطاب الزجر والتقريع ، وأن نعتبره أصل خطاب الله إلى الإنسان ومناط علاقته به للحياة ، فنعمّمه خطاباً للدعوة ، ومفهوماً لعلاقة الله بالإنسان في الحياة .

كذلك يجب أن لا نخلط بين مشاعر عزّة المؤمنين وكرامتهم (فذلك موقف عزّة الحق والتلبّس به والدعوة إليه) وبين مواقف تضرّعهم ومحبّتهم وإنابتهم في صلواتهم إلى الحق المنعم المكرم العليم الغفور ، فهي علاقة حبّ وشوق إلى الرحيم الودود . فكلا الموقفين مواقف عزّة ومواقف خير وكرامة تليق بالمؤمن في علاقته بالله ، تمكّن له في الأرض لأداء رسالته ، وتحقيق غاية وجوده ، خليفة كريماً صالحاً يؤمن بالحق ويستند إليه ويسعى إلى بلوغ مرضاته .

فالوحي بهذا المفهوم مصدر أساسي لمعرفة الإنسان تبصّره بغاية وجوده ومكانه من هذا الوجود ومصيره بعد هذا الوجود : **﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم**

---

(١٥) الشمس : ٧ ـ ١٠.

(١٦) التين : ٤ ـ ٦.

أيّكم أحسن عملاً ﴾(١٧) . وليس للإنسان من وسيلة لمعرفةٍ يقينيةٍ بغاية وجوده ومكانته في هذا الوجود وعلاقته بما وراء الوجود وما وراء الحياة إلّا بواسطة الوحي ، ففعل الإنسان وعلم الإنسان ومنطق الإنسان لا سبيل له إلى هذا اللون اليقيني من معرفة الكليات .

وبما فطر الله عليه نفس الإنسان وما وهبه من عقل ، وما ركب فيه من إدراك ، وما يراه في الخلائق والكون من فطرة وسنن ، يجعله لا يجد لنفسه مندوحة في طلب معرفة كلّيات هذا الوجود وموقعه منها ، وإلّا أصبحت حركته لا دليل لها ولا غاية تسعى إليها ولا معنى تحقّقه ، ممّا ترفضه فطرة العقل وسنن الله في الكائنات ، وهو أمر يورث النفس البلبلة والاضطراب ، ويتركها نهباً للحيرة والخوف . والوحي الموثّق الصحيح هو الوسيلة الوحيدة لهذا النوع من المعرفة ، يستكمل به الإنسان وجوده وأدواته للسير في هذه الحياة ، ولذلك فالوحي للعقل والإدراك وللفكر الإنساني في هذه الحياة ضروري ومكمّل ولا غنى عنه ، ولا يمكن للإنسان وللفكر الإنساني في هذه الحياة بلوغ مرحلة اليقين والطمأنينة واستكمال دليل حركة الحياة دون اعتماد الوحي الصحيح مصدراً أساسياً يستكمل به معرفة العقل وعلمه في شؤون عالم الشهادة : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾(١٨) .

والعقل الإنساني هو أداة الإدراك والفهم والنظر والتلقي والتمييز والموازنة ، وهو وسيلة الإنسان لأداء مسؤولية الوجود والفعل في عالم الشهادة والحياة . والعقل بما أُودع من فطرة إلى جانب أنّه الوسيلة الأساسية للإدراك فإنه يحوي في ذاته بديهيات المعاني والعلاقات بين الإنسان والحياة والوجود والكائنات ، ويبني عليها منطقه ومفاهيمه الأساسية في هذا الوجود ، ودون العقل لا يوجد إنسان ولا يوجد إدراك ولا يوجد فهم ولا وعي ولا توجد مسؤولية .

والعقل هو موجِّه الإنسان ودافعه ووسيلته إلى إدراك موقعه وغايته من الحياة ، وهو موجّهه ودافعه ووسيلته في طلب علم الغيب والتلقي عن رسالات الوحي .

والعقل وقدرته على الإدراك والتمييز والتمحيص هو وسيلة الإنسان إلى إدراك

فحوى الوحي ووضعه موضع الإرشاد والتوجيه لعمل الإنسان وبناء الحياة ونظمها وإنجازاتها، بما يحقّق غاية الوحي ومقاصده وتوجيهاته وأحكامه.

والعقل هو الذي يميّز بين الوحي الخيّر الصحيح الموثق، والدجل والخرافة والكهانة الكاذبة الفاسدة الضالة، وهو الذي يمكن الإرادة الإنسانية من الخيار، ويضعها أمام مسؤولية المسلك والمصير.

فلا مجال لوجود الإنسان كإنسان ولا مجال للتلقّي عن رسالة الوحي كمصدر للمعرفة والتوجيه والعلم، ولا مجال لمسؤولية الخلافة والإعمار دون وجود العقل، ودون دور العقل، ودون فطرة العقل في معطياته وقدراته وبديهياته، في الإدراك والفهم والتمييز، وما تدلّ عليه وتدعو إليه من مقاصد الخير والعطاء.

ولمّا كان وحي الأمم قبلنا قد أفسده التحريف وقضى على مصداقيته كمصدر يقيني للمعرفة، فإن العقل المسلم ـ وقد تميّز بالرسالة الكاملة الصادقة ـ تميّز بتكامل مصادر معرفته في العالمين، عالم الغيب وعالم الشهادة، فالوحي مصدر علم الكليات وعالم الغيب، والعقل مصدر علم الشهادة وإدارة الحياة، يولدها ممّا أودعه الله فيه من معايير وبديهيات ومفاهيم وما يتحصّل عليه من علم بالكون والكائنات والطبائع والعلاقات الكونية، التي يبني بها الحياة ويؤدي بها دور الخلافة في الكون والكائنات، وبهذا يتكامل المصدران الوحي والعقل مع الكون لتمكين الإنسان من تحقيق مقاصد الخلق وأداء دور الاستخلاف.

فدور العقل هو علم الشهادة بتمحيص صدق الرسل وصحّة سند الوحي المبلغ وتوثيقه، ودور العقل هو علم الشهادة بإدراك مقاصد الوحي من وجود الحياة والإنسان في عالم الشهادة، ودور العقل هو تفهم عالم الشهادة وما تحويه فطرة الكون من طبائع وعلاقات وإمكانات في ضوء معطيات الوحي بشأن غاية الحياة ومعايير حركتها، ودور العقل المسلم هو بناء عالم الشهادة والخلافة في هذا الكون على مقتضى توجيهات الإرادة الإلهية وغاياتها تكاملاً مع ما أودع الله في النفوس والكائنات من فطرة وسنن بلوغاً إلى سبل السلام وإلى الصراط القويم.

والعقل المسلم يستمدّ قوّته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته بما لديه من علم الوحي، وهو يعلم علم اليقين من علم الغيب بقدر ما لديه من علم الوحي، وهو عقل مؤمن راشد مطمئن غير مكابر ولا جاحد ولا مستكبر، ولا يترك اليقين إلى الظن، ولا

يترك الهداية إلى الضلالة ، وهو عقل مؤمن قادر منجز تستغرقه مسؤولية خلافة الكون والحياة والإعمار والإصلاح على علم ونور ويقين ، لا يستنفذ ولا يحير في قضايا الشك والظن والغيب بلا علم ولا نصير وسراج منير .

فدور الوحي الربّاني هو في إمداد العقل المسلم بحاجته من علم عالم الغيب ، وتوضيح غايته الخيّرة من خلق الإنسان في عالم الشهادة ، ودوره في خلافة الأرض ، ودور العقل المسلم هو السعي في عالم الشهادة وإقامة الخلافة في الأرض على نور من توجيه الوحي والرسالة الربانية .

هذا ما كان عليه عهد السلف الأوّل ، وهذا ما يكون عليه العقل المسلم إذا استقام أمره وصلح أداؤه ، لا خلط ولا تشويش ولا عماية ولا جهد ضائع ولا طاقة مهدرة ولا تخبّط وقلق وشك دائم لا يزول وعماية لا تريم .

إن غياب هذه الرؤية الواضحة الحاسمة النيّرة الشفافة لمعنى الوحي الرباني الإلهي ، ودور الوحي الإلهي في حياة البشر وعالم البشر ، وكذلك غياب الرؤية الواضحة الحاسمة لمعنى العقل الإنساني ، ودوره في إدراك معاني الوحي ومقاصده ، وفي معايير إدارة عالم الشهادة ، وإدراك قضاياه وحوادثه وتحدّياته ومجريات الحياة والطبائع والكائنات ، هذا الغياب ، وهذا التدهور خلال عهود التاريخ الإسلامي اللاحق للصدر الأوّل ، هو الذي سمح فيما بعد بالخلط الخاطئ في الفكر الإسلامي بين مفهومي الوحي والعقل ، والعلاقة بينهما ، وطبيعة كل منهما ، ومجال أدائهما ، ومدى هذا الأداء ، والغاية منه ، وموضعه من طبيعة الإنسان ، وأدائه ، وغاية وجوده ، وهكذا أمكن أن يتهوّر العقل المسلم والفكر المسلم حتى يستنفذ ويصرف إلى غير غايته ، ففقدت الرؤية الإسلامية ما اتّسمت به من تمييز ووضوح مطلق ، في موضع كل من الوحي والعقل ، ودور كل منهما .

في الرؤية الإسلامية الصحيحة والمنهجية الإسلامية الصحيحة لا مجال للانحراف باسم العقل ، ولا للإنحراف باسم الدين ، ولا مجال للاستبداد باسم العقل تجاهلاً لغايات الوحي ومقاصده وتوجيهاته ، ولا مجال للاستبداد باسم الدين والقداسات للاستبداد بتصريف شؤون الأمّة على غير قناعة منها ومشورة لها تمنح بها ولاءها وتحقّق مصالحها ، ولا مجال لتخطّي الأمّة وتجاوز مشورتها وتخطّي قناعتها ودعمها من منطلق جهل الأمّة ، فالجهل لا يزيله إلّا نور العلم ، وضعف القدرة وتهلهل التنظيم لا

يزيله إلّا تنمية القدرة وحبك التنظيم ، وليس أمام الفكر المسلم والعقل المسلم إلّا أن يؤدي دوره ومسؤوليته في تبصير الأمّة بأسباب معاناتها وقصورها وتدهورها وتخبّطها فيما مضى من العصور والقرون .

فإذا شاءت الأمّة أن تستعيد وضوح هويتها وعطاء فكرها وقدرتها فلا مجال للحجر والوصاية الغاشمة على العقل المسلم في جهوده الأصلية للاستنباط والاستقراء والنظر والتدقيق والتجريب والفهم وإدراك وجه التوجيه والمصلحة في النفوس والمجتمعات ، في ضوء توجيهات الوحي وفهم شريعته على شاكلة حيّة قويمة خيّرة تطلب تحقيق مقاصد الشريعة وإقامة مجتمع الخلافة .

وإذا شئنا أن نستعيد وضوح رؤيتنا وعطاء فكرنا وقدرة أمّتنا فلابدّ لنا من حماية العقل المسلم من الخوض في قضايا الغيب على غير ما جاء به الوحي وأرشدت إليه الرسالة .

ولا مجال لأن يصبح الوحي في الرؤية الإسلامية السوية تعطيلاً للعقل وتشكيلاً له في أنماط وصور تاريخية ، وتحويله إلى سياط من التخويف والإرهاب ، وإلى قيود من الأوامر والتحريمات والتجريمات التي لا تتعلق بأحوال الناس ومجريات حياتهم وما يواجههم من تحدّيات وما يرقّي في حياتهم من إبداعات وإمكانات .

وإذا شئنا أن نستعيد وضوح رؤيتنا فلا مجال لأن تصبح الرسالة وأن يصبح الوحي قضية أكاديمية معقّدة لها كيانها وأربابها يصرفونها إلى ما يشاءون ، ويمارسون باسمها السلطة على مقدّرات الحياة والعقول ، وفقاً لما تمليه عليهم رؤيتهم وموقعهم الخاص من الحياة والمجتمع . ليس لهم في ذلك شريك في رأي أو مشورة أو قناعة من الأمّة ورجالها وعقولها ، بشأن ما تتطلّبه حاجة الأمّة والتحديات التي تواجهها والإمكانات والطموحات التي تتطلّع إليها ، وما يتعلّق بها من الحلول والنظم والتركيبات المبدعة التي يتوجّب توليدها من أجل أن تلتزم لمواصلة المسيرة الحضارية للأمّة تحقيقاً لمقاصد الشريعة والوحي .

لقد ضيّع المسلمون وضيّع العقل المسلم الكثير من طاقاته عبر التاريخ حين سمح لهذا العقل بأن يخوض في الغيبيات والإلهيات* والسفسطات الفلسفية التي تتعلّق

---

* قد لا نتفق مع الكاتب تماماً، بل نقول بضرورة وجود توازن في اهتمام الفرد المسلم بعالمي الغيب والشهادة.

بالكليات الربانية على غير ما تقضي به الرؤية الإسلامية وإطارها الفكري والمنهجي الذي جاء به الوحي وصدّقته الفطرة وبرهنت على كفاءة أدائه مسيرة الصدر الأوّل للإسلام .

الرؤية الإسلامية القويمة التي يتكامل فيها الوحي والعقل والكون ويُصرف فيها العقل المسلم إلى النظر والتدبّر والعمل في عالم الشهادة وشؤونه كما يوجّهه الوحي ؛ هي الرؤية التي مكّنت للسلف الأوّل ناصية الإبداع ، وفتحت أمام العقل المسلم أبواب التجريب والنظر والتنقيب في سنن الحياة والكائنات ، وفتحت للإنسانية آفاقاً جديدة في مجال الحضارة ، كانت هي الأساس الذي أقامت الحضارة الحديثة عليه منهجها العلمي التجريبي وإنجازاتها المادية التجريبية التي لم تعرف لها الإنسانية من قبل سبيلاً ولا مثيلاً .

وبقدر ما تيسّر للعقل المسلم خلال ما مضى من عصور من صفاء الرؤية الإسلامية ؛ بقدر ما تمكّن من الانصراف إلى بناء الحياة وحمل مسؤولياته في خلافة عالم الشهادة وإعماره ـ يشهد بها تراث المسلمين الحضاري في مختلف العلوم والفنون الطبيعية والتقنية والشرعية ـ وبقدر ما انغمس العقل المسلم في سيرته التاريخية في قضايا الغيب والإلهيات وعالم ما وراء المادّة الأزلي ـ الذي هو بُعدُ آخر لا يطاله عقل الإنسان ولا منطقه ولا قدراته ولا يخضع لسببية عقل الإنسان وليس له ما يماثله في عالم الإنسان (لم يلد ولم يولد) (ليس كمثله شيء) ـ ؛ بقدر ما ضيّع من جهده وطاقته دون أن يحلّ مشكلة أو يزيل معضلة ، بل ما زالت الأوهام والسفسطات والقضايا التي خاضها قائمة ، وما زال الخوض فيها قائماً ، وما زالت العماوة والخلاف والشقاق فيها يزيد ولا ينقص ، وما زالت الفرقة والتناحر الذي لا طائل تحته ولا خير فيه يزداد ، وما يزال سوء استغلال هذه القضايا من أصحاب الغايات يتعاظم ، ويضرّ الأمّة ، ويمزّقها ويؤجّج نار الصراع في صفوفها ، ويصرفها عن حقيقة التحدّيات التي تواجهها ، ممّا يعين عليها أعداءها ، ويمكن لمطامعهم وغاياتهم فيها .

إنّ للشريعة الإسلامية والوحي الإسلامي تصوّرات كبرى وغايات ومقاصد ومفاهيم ومبادئ وقيماً وأحكاماً أساسية ، يجب أن تتّضح في نسق عقلي ومنهج علمي سليم ، وأن تصبح مادة تربوية علمية فكرية يربّى عليها أبناء الأمّة وتقام على أساسها كياناتهم النفسية وغذاؤهم الفكري وأداتهم العقلية والعلمية .

يجب أن ينظم العقل المسلم والمنهج المسلم في هذا العصر، النصوص وكلمات الوحي والرسالة في نسق منظوم متكامل تتضح به المقاصد والغايات، وتتجلّى به المفاهيم والقيم، وترتّب على أساسه الأولويات، وذلك حتى يقضي على منابع التخبّط والغبش في رؤيته التي سمحت وما تزال تسمح للنظر القاصر والفكر النظري العقيم أن يسود وأن تكون له كلمة ومكان في فكر الأمّة وثقافتها. إن وضوح الرؤية والمقاصد وحسن النسق والعرض هو الذي سيقضي على الغبش والتخبّط وهو الذي لن يجعل للنظر الجاهل في النصوص وعلاقتها وأولوياتها وغاياتها مجالاً ولا موضعاً يعتدّ به.

على العقول الإسلامية أن تنطلق إلى الوحي كلّاً واحداً لا يتجزأ، وأن تستخلص منه التوجيهات والضوابط وتنشئ على أساسه لحاجاتها الحلول والتنظيمات والتشريعات.

على الفكر الإسلامي وعلى العقول الإسلامية أن تنطلق إلى الحياة والأحياء والسنن والطبائع وإلى الإمكانات والحاجات والوقائع والبيئات والتركيبات والظروف والمواقع الحياتية المختلفة، تدرسها وتتفهمها وتفيد وتتعلّم منها، وتجد لمعضلاتها الحلول، وتقيم لأدائها التنظيمات وتضع لحاجاتها الضوابط والقواعد والتشريعات على أساس من المنظور الإسلامي، وفي ضوء ما جاء به الوحي من مقاصد وتوجيهات وضوابط وأحكام.

العقل المسلم، في مزاولته لدوره الحضاري مشتركاً مع الوحي ومع الكون كمصادر للمعرفة الإسلامية؛ لا يخلط بين دور الخبرة الأكاديمية الشرعية الإسلامية في المجالات الشرعية والاجتماعية والإنسانية القانونية، وبين المهمّة السياسية والتشريعية. فالخبرات والدراسات العلمية والأكاديمية في مختلف المجالات إنما تمثّل مصادر أساسية لإمداد الأمّة وقيادتها ومؤسساتها بالمعرفة والفكر والخبرة والدراسات والأبحاث، التي تستفيد بها في فهمها للحياة ومجرياتها، وتستفيد بها في بناء خططها وتصريف شؤونها وتوفير حاجاتها، وهذه الدراسات والأبحاث الأكاديمية - على عظيم أهميتها وموقعها الأساسي من فهم الناس وحاجاتهم وتوفير مادّة فكرهم - تظلّ على الرغم من ذلك غير المهمّة السياسية التشريعية، وإن كانت تسهم في توفير مادة عطاء المهمة السياسية التشريعية وحسن أدائها.

فالمهمة السياسية التشريعية في كيان الأمّة يجب أن تمثّل خلاصة رؤية الأمّة

وخبراتها وقناعاتها بشأن إدارة شؤونها ، وتصريف أمورها ، وتوجيه طاقاتها ، وتوظيف مواردها ورؤيتها ، في مواجهة تحدياتها وما تستجيب له من طموحات ، ولهذا فالمهمّة السياسية التشريعية الناجحة يجب أن توظف لها مشورة أبناء الأمّة كافة على مستويات وبترتيبات مختلفة بحيث تتاح الفرصة لكل فرد لأن يعبّر عن رأيه ، ولكل ذي خبرة واختصاص لأن يدلي بدلوه ، وبذلك تأتي الرؤية السياسية واقعية شاملة مستنيرة تستند إلى الأمّة وحاجاتها وخبراتها وقناعاتها فلا تستغلق على الأمّة بل تحظى بتأييدها والبذل لها والالتزام بموجباتها وما يتطلّبه نفاذها ونجاحها .

فاعتماد الرؤية الإسلامية للوحي مصدراً للفكر المسلم والمعرفة الإسلامية والتزام العقل المسلم في نظره وعطائه بضوابط الوحي وغاياته لا يعني الخلط بين القضية العلمية الدراسية الأكاديمية والقضية السياسية التشريعية ، وتحويل الساحة السياسية التشريعية إلى ساحة مدرسية أكاديمية نظرية ، بل يعني إثراء التشريع الإسلامي والسياسة الإسلامية في مجال التوجيه الربّاني وإرشادات الرسالة ، بإسهامات الدراسات العلمية المختصة ، عند اتخاذ القرارات السياسية والتشريعية .

إن منهج جماعية القرارات السياسية وشموليتها لا يتنافى مع وجود القناعات الفردية وتعارضها من زوايا مختلفة في أي أمر أو أيّة قضية ، ولا يمنع قبول رأي بعينه في أمر بعينه من العودة إلى رأي آخر سواه ، إذا نشأ لدى الأمّة من دواعي القناعة ما يوجب التغيير والعودة عن ذلك الرأي . وإذا كان الخطأ يقع في قرارات الجماعة مع كل ما يتوافر لها من الإمكانات ؛ فإن قرارات الأفراد ومدركاتهم تكون أكثر عرضة للوقوع في الخطأ . وعلى كل الأحوال فإن قرارات الجماعة تكون لها اعتبارات واهتمامات ومصالح أشمل ، وتتوافر لها إمكانات المشورة والتمحيص بشكل أكبر ، وإن مشاركة الجماعة في اتخاذ قراراتها السياسية والتشريعية تجعلها أقرب إلى الفهم والقبول والالتزام والتنفيذ .

والرؤية الإسلامية التي تعتمد الوحي والفطرة في العقل والكون مصادر لبنائها ، توجب أن تتمّ قرارات الأمّة والجماعة في مشورة ، وأن المشورة والقناعة العامة للأمّة هي التي تحقّق مسؤولية الإرادة الإنسانية وتحقّق غايات الخلافة وتقطع دابر الاستبداد والطغيان وحمل الناس والمجتمعات على غير مصالحهم وعلى غير رؤيتهم وقناعاتهم التي بها يحملون مسؤولياتهم .

خوف الخطأ في قرارات الأمّة ، والحرص على السداد في هذه القرارات يحتم نشر العلم والمعرفة بين أبناء الأمّة ، وتبليغ النصح لهم ، وبناء المحاضن التي تسهر على تربية ناشئتهم وتثقيفها وتهذيبها وتدريبها على طلب ما يقضي به الوحي الصحيح والعقل السليم في شؤون حياتهم ، وإقامة قنوات العلم والمعرفة التي تؤهّل جمهور الأمّة لاختيار المؤهلين من أصحاب الالتزام والرأي والخبرة لكي يوكل إليهم أمر اتخاذ القرارات السياسية والتشريعية بما يمثّل حاجة الأمّة ويستند إلى رؤيتها ويحظى بقبولها وتأييدها والتزامها . غير ذلك لا يؤدي إلّا إلى الإرهاب والاستبداد والانحطاط ، وإلى تلبّس الجهل والمصالح الخاصة والفساد لبوس الحق ودعاوى المصلحة العامة .

وهكذا لا يختلط في الرؤية الإسلامية ولا في الفكر المسلم الوحي والرسالة اللّذين تعهد الله بحفظهما ، مع الدراسة والفهم والنظر والشرح والتوضيح والرأي .

ويبقى واضحاً في الرؤية الإسلامية القويمة موضع الوحي ودوره ، ويبقى واضحاً دور الأداء العلمي الأكاديمي ، ودور الرؤى والاجتهادات الفردية في القضايا العلمية ، ويبقى واضحاً دور التشريع الاجتماعي الذي يستمد وجوده من الالتزام بالوحي وتوجيه الوحي ، وبإدراك العقل الكلّي للأمّة وتمييزها واجتهادها وقناعاتها ، ممّا يجعل هذه التشريعات في زمانها ومكانها تتعامل فعلاً مع قضايا الأمّة وحاجاتها ومدركاتها في مختلف شؤون الحياة ؛ بما في ذلك ما تقرّ السلطات العامة تعليمه وتلقينه للنشء من أبناء الأمّة .

لذلك يجب أن يبقى الخلاف السياسي خلافاً سياسياً تقارع بشأنه الفئات المختلفة والرؤى المختلفة ، وتمحص الأمّة ما يطرح أمامها من اجتهادات وتصوّرات لتأخذ نفسها وتلزمها وتلزم الأطراف السياسية في الأمّة بما تراه مناسباً منها حتى تقوم في قناعتها ما يدعوها إلى التحوّل عنها إلى سواها .

كذلك من المهم أن لا نخلط في دراستنا للمنهجية الإسلامية هذه بين مصادر المعرفة الإسلامية وهي الوحي والعقل والسنن والطبائع المودعة في الكون والكائنات (أي الفطرة) وبين وسائل البحث والدراسة العلمية الاجتماعية والإنسانية أو سواها ، فكل مجال علمي له وسائله الخاصة به التي تناسب طبيعته وتستجيب لحاجاته . ولكن تظل هذه المجالات العلمية الإسلامية جميعها تستند إلى الوحي والفطرة التي تشمل العقل وسنن الله في الخلق وما أودعه من الطبائع والنواميس مصدراً للمعرفة والتوجيه ،

باستخدام الوسائل المتاحة في كل مجال من هذه المجالات . وبتكامل عطاء الوحي والعقل والسنن ، فإن حقول المعرفة الإسلامية سوف تتميّز بالشمول والانفتاح على كل وسيلة سليمة تولد علماً ومعرفة نافعة للإنسان .

إن ما أصاب الأمّة من تخلّف وما نالها من عناء يوجب على العقل المسلم أن يأخذ دوره الصحيح مصدراً للفكر الإسلامي متكاملاً ومتعاوناً مع مصدر الوحي والكون للعمل سويّاً على بناء الرؤية الحضارية من منظور إسلامي ، وبناء المجتمع المسلم المعاصر ومؤسساته ومنشآته التي تتطلبها حاجة الأمّة وطموحاتها وما تواجهه من تحديات .

ودور العقل المسلم كمصدر للمعرفة الإسلامية ، لم يتصد له العقل المسلم في هذا العصر بشكل منظّم بعد ، لأن هذا الدور لا يكتمل إلّا باعتماد المعرفة المستمدة من الفطرة التي أودعها الله في الكائنات ، وإلّا ببناء العلوم الاجتماعية الإسلامية التي تمليها الرؤية الإسلامية والتي ستؤهل بأبحاثها الأمّة الإسلامية وتزوّدها بالمعرفة اللّازمة .

ولكي يقوم العقل المسلم والفكر المسلم ببناء العلوم الاجتماعية لابدّ له من الوضوح الكامل للأسس والمنطلقات والمفاهيم والمبادئ التي يستند الفكر الإسلامي إليها ، وتمثّل قاعدة منهجيّته العامة التي يهتدي بهديها ويسير على مقتضاها .

٣ ـ المنطلقات الأساسية للمنهجية الإسلامية والفكر الإسلامي

تتميّز المنهجية الإسلامية ومن ورائها الفكر الإسلامي بأن لها منطلقات أساسية لا يمكن دون فهمها التعامل معها أو العمل السليم البنّاء من خلالها ، هذه المنطلقات تمثّل الركائز والفرضيات الأساسية التي تضيء الطريق أمام العقل المسلم في حركته الفكرية الإبداعية نحو فهم ماهية الحياة والاحياء والكائنات والتعامل معها وإدارة شؤونها وتوجيه مسيرتها .

هذه المنطلقات الأساسية هي منطلق الوحدانية ، والاستخلاف ، والمسؤولية ، وهذه المنطلقات الثلاثة تشكّل الخطوط الأساسية للعقل المسلم ، وأي خارطة لا تنطلق من هذه المنطلقات لا تجد في الضمير المسلم والإرادة المسلمة طاقة للحركة ولا مبرّراً للإنجاز .

(أ) الوحدانية

الوحدانية هي المنطلق الأساسي الأوّل للعقل المسلم ، فالعقل المسلم لا يكون له وجود إلّا إذا آمن بالوحدانية على أنها مسلّمة عقيدية بديهية فطرية عقلية تختلط بكل ذرّة من كيانه ووعيه وضميره وفهمه لذاته وحياته والكون من حوله ، وأساس هذه العقيدة البديهية الفطرية العقلية هو إيمانه المطلق وإدراكه البيّن بالله جل شأنه الخالق الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء .

وهذا المنطلق كما يدل عليه مصطلحه ، وتنطق به كلمة الشهادة ، ويوضحه القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة ، يقيم العقل المسلم والفكر المسلم والمنهجية الإسلامية على فرضية الحق أساساً ومداراً ومآلاً لكل الكون والكائنات ، وعلى فرضية وجود الكون والكائنات ، ومرد وجودهما إلى الله الخالق وحده دون شريك أو مثيل ، وعلى فرضية وحدة المصدر ووحدة الحقيقة التي ينطلق منها ويمثّلها كل الكون والكائنات ، وعلى فرضية وحدة الإنسان الذي خلقه الله وكرّمه بالإرادة والخلافة ورعاية الكائنات على أُسس الحق والعدل والخير .

ولذلك فالعقل المسلم في حركته الحياتية يستلهم مبدأ الوحدانية في تصوّراته وفي علاقاته كافّة وليس في منهج هذا العقل مجال أو سبيل إلى الشك أو الظن أو الحيرة أو التخبط في طبيعة الوجود وغايته ومآله . فهو واثق الوجهة ، واثق الخطو ، لا سبيل إلى صرفه عن وجهته ، ولا سبيل إلى إفساد سعيه ، ولا سبيل إلى إشغاله عن مهمّته الخيّرة في الحياة والكون ، ما دام ملتزماً بمبدأ الوحدانية ، متمسّكاً به ، مهتدياً بهديه ، أيّاً كان المجال اجتماعياً أو طبيعيّاً أو تقنياً . وما حقّق العقل المسلم من نجاح إلّا من خلال تمسّكه بمبدئه الأساسي في التوحيد وما ضلّ في سعي إلّا بتجاهله مبدأ الوحدانية ، أو بغفلته وانشغاله عنه دليل فكر وعمل وحركة والتزام .

وهكذا تتميّز العقلية الإسلامية والمنهجية الإسلامية الواعية باستقامة مبصرة وقاعدة مكينة للنظر في الكون والحياة لا مجال فيها للتناقض أو الصراع ، ولا مجال فيها للتمايز أو الاستعلاء والإفساد . منطلق العقلية الإسلامية والمنهجية الإسلامية هو قاعدة العلاج الصحيح من أمراض الهوى والعصبيات والاستكبار والإفساد ، وفيه الجواب الصحيح على ما يلقاه العقل الإنساني ـ رغم كل إنجازاته المادية ـ من عناء وعنت وحيرة وفشل في تحقيق السلام والأمن والطمأنينة للنفوس والتجمّعات والأمم .

﴿ سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى * الذي خلَق فسَوّى * والذي قدّر فهَدى ﴾[١٩] .

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضُهم على بعضٍ سبحان الله عمّا يصفون ﴾[٢٠] .

﴿ أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾[٢١] .

﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلْقه ثم هدى ﴾[٢٢] .

﴿ هذا خلْق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾[٢٣] .

﴿ صنْعَ الله الذي أتقن كلَّ شيء إنّه خبير بما تفعلون ﴾[٢٤] .

﴿ خلَق السماوات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسَن صُوَركم وإليه المصير ﴾[٢٥] .

﴿ ما ترى في خلْق الرحمٰن من تفاوُت فارجِع البصر هل ترى من فطور ﴾[٢٦] .

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبَثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون * فتعالَى الله الملكُ الحقّ ﴾[٢٧].

﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلّا الله لفسدَتا فسبحان الله ربِّ العرش عمّا يصفون ﴾[٢٨] .

﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[٢٩] .

﴿ ومن يؤمنْ بالله يهد قلبَه والله بكل شيء عليم ﴾[٣٠] .

﴿ ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العليّ الكبير ﴾[٣١]

(ب) الخلافة

والمقصود بالخلافة خلافة الإنسان في الأرض والكون ، وهي خلافة رعاية وإعمار وإدارة وتسخير أصبحت بها الخلائق والكائنات بإمرة الإنسان ، وأصبح الإنسان قائماً بها في موضع الوصاية والنيابة عن الله في التصرّف في الكون وفي الأرض وفي الخلائق والكائنات . والمسلم بفطرته وعقيدته ومنهج فكره على أساس هذا المنطلق وبما كرّمه الله به من الإرادة وقدرة العلم لا يرى الإنسان في هذا الكون إلّا من موضع الخلافة والرعاية والإصلاح والإعمار .

---

(١٩) الأعلى : ١ ـ ٣.
(٢٠) المؤمنون : ٩١.
(٢١) الطور : ٣٥.
(٢٢) طه : ٥٠.
(٢٣) لقمان : ١١.
(٢٤) النمل : ٨٨.
(٢٥) التغابن : ٣.
(٢٦) الملك : ٣.
(٢٧) المؤمنون : ١١٥ ـ ١١٦.
(٢٨) الأنبياء : ٢٢.
(٢٩) الشورى : ١١.
(٣٠) التغابن : ١١.
(٣١) الحج : ٦٢.

وهكذا فالخلافة من مفهوم العقل المسلم هي نعمة وتكريم تضع الإنسان في موضع القدرة والسيطرة من الكون تسخيراً لحاجته وإيكالاً لأمر السلطة فيه إليه لتسييره والسير فيه سيرة الإصلاح والإعمار . وهي مسؤولية مناطها في الجوهر حرية الإرادة والقرار . وقدرة الإدراك وطاقة العلم .

فالإنسان لا يؤدي دوره في الحياة ولا يقرّ قرارَ نفسه وضميره إلّا بالفعل والقرار الدائب في إدارة الكون وتسخيره ورعايته وأداء مطالب الوجود والخلافة في الأرض ، ولذلك فالعمل مطلب للإنسان . والقرار مطلب للإنسان ، والعلم مطلب للإنسان ، ومنطلق الخلافة لدى العقل المسلم يحدّد غاية هذه المطالب الفطرية ويرشدها ، فتصبح بذلك مطالب سعي إلى الخير وإلى الرعاية وإلى الإعمار .

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبَثاً وأنّكم إلينا لا تُرجعون ﴾(٣٢) .

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾(٣٣) .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾(٣٤) .

﴿ وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ﴾(٣٥) .

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(٣٦).

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾(٣٧) .

فالعقل المسلم مدعوّ من منطلق الخلافة إلى تسخير الكون والكائنات لما فيه النفع : نفعه ونفع الكون والكائنات من حوله ، ومدعو إلى العمل والسير في دروب الكون ومناكبه ، ومدعوّ إلى العلم بأسراره وتسخير هذا العلم لما فيه الخير . والعقل المسلم من منطلق الخلافة هو صاحب الشأن والكلمة في الكون ، ومطالب بالسعي والإبداع والإعمار ، وبالعلم والإعمار والتسخير يحقّق الإنسان مهمّته في هذه الأرض ويبلغ غايته ، ولا سبيل بدافع الفطرة إلى طمأنينة النفس الإنسانية إلّا بالعلم والعمل والسعي الخيّر في الأرض ، ولا مجال في العقل المسلم السويّ ، ولا في الضمير المسلم الواعي للعجز والجهل والقعود عن علم الخير ، وعن فعل الخير ، وعن سعي الخير ، فذلك غاية

---

(٣٢) المؤمنون : ١١٥.
(٣٣) الملك : ٢.
(٣٤) البقرة : ٣٠.
(٣٥) الجاثية : ١٣.
(٣٦) الملك : ١٥.
(٣٧) العنكبوت : ٢٠.

وجود الإنسان ، وتلك خلافته في الأرض ، وما عاقبته فيما وراء الحياة إلّا محصلة هذا العمل وهذا العلم وهذا السعي .

إنّ بُعد الخلافة في العقلية الإسلامية هو الذي يفسّر لنا طاقة الرعيل الأوّل من رجال الإسلام ، تلك الطاقة التي لا تضاهى لرسول الإسلام ﷺ وأصحابه، والتي ما كانت تكلّ وما كانت تملّ في السعي والعمل والبذل والإيثار والجهاد . فأضاؤوا بالحق والهدى والإصلاح والإعمار أرجاء المعمورة في سنين قليلة ، وجدّدوا للإنسانية عهود هداية السماء ، وارتفع صوت حضارة وإصلاح لم تترك بقعة في الأرض إلّا ونالها أثر ونفع وخير .

منطلق الخلافة ومدلول الخلافة وواجبات الخلافة في رؤية الصدر الأوّل هي مصدر طاقتهم وبذلهم وعطائهم وعفّتهم وقناعتهم وإيثارهم . ولا مجال لأي إنسان يعي حقيقة هذا المنطلق ـ منطلق الخلافة ـ ومدلوله أن يركن إلى العجز والجهل والأثرة والتخلّف .

(ج) المسؤولية الأخلاقية

والمنطلق الثالث الذي تقوم على أساسه العقلية الإسلامية والمنهجية الإسلامية هو منطلق المسؤولية الأخلاقية ، فلا يمكن لنا فهم الإنسان المسلم والعقل المسلم إذا لم نفهم منطلق المسؤولية وبُعدها في هذه العقلية ، وحتى في عصور التخلّف ، وحتى في أقسى ساعات ضياع الإنسان المسلم ، فإن ما يبقى عليه ويؤرقه ويمنعه أن يندثر وأن يتوارى في أغوار التاريخ هو أرق ضميره وإحساسه بمسؤوليته وتقصيره في أدائه . لذلك ظل العقل المسلم ولا يزال يتململ ولا يقبل بواقعه المتخلّف الآسن الراكد ، لأن بُعد الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية في العقل المسلم والضمير المسلم يأبى أن يترك المسلم في غفوته وفي تقصيره ، ولهذا كان تاريخ الأمّة الإسلامية في عصورها المتأخرة حين أعتمت رؤيتها وضلّت سبيلها وتخلّفت مسيرتها تاريخ أرق وقلق ، ولم يبق لها ولم يبق عليها إلّا إحساسها بمسؤولياتها عن دورها وعن تصوّرها ورؤيتها وعن تقصيرها ، ممّا أورثها البحث الدائم الدائب عن مخرج لها من حالها البائس ، وتخلّفها عن موقعها الهادي الراشد في خلافة الأرض وحضارة الإنسان في إعمار الكون وإصلاحه .

ومنطلق المسؤولية وبُعدها هو منطلق وبُعد يمثّل الوجه الآخر لمنطلق الخلافة

ومفهومها في تكوين العقلية الإسلامية . فالخلافة والغاية منها ومؤهلاتها من حرية الإرادة وقدرة الإدراك وطاقة العلم ، تحمل معها مسؤولية الإنسان الأخلاقية عن هذا الدور ، وعمّا يترتّب عليه من قرارات في تسخير الكون وإدارته ، بالسعي أم بالقعود ، بالإصلاح أم بالإفساد ، بالعدل والاعتدال أم بالإسراف والطغيان .

ومنطلق الوحدانية هو منطلق جدية الوجود وجدية الخلافة وجدية المسؤولية ، ولذلك فالحياة في دين الإسلام هي أداء وابتلاء لإرادة الإنسان وقدراته فيما خُلقت من أجله من شؤون خلافة الكون ، ومن سعى بها إلى غاية فطرتها في الإصلاح والإعمار ، حمل مسؤوليته وقرّر مصيره الخيّر في الأبدية ، ومن سعى بإرادته وبقدراته إلى غير فطرتها التي خلقت لها وسعى بها إلى القصور والظلم والفساد فقد تخلّى عن مسؤوليته وانتهك حرمة واجباته وغاية وجوده وانتهى بمصيره الأبدي إلى أسفل سافلين .

ومن منطلق المسؤولية في العقل والضمير المسلم فإن السعي المسلم والقرار المسلم والعلم المسلم لا يتمّ ولا يقبل إلّا أن يسعى بالحق والعدل والخير والبذل والإصلاح والإعمار .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾(٣٨) .

﴿ يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيّباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾(٣٩) .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغِ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾(٤٠) .

﴿ واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفّى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون ﴾(٤١).

﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكرون ﴾(٤٢) .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾(٤٣) .

﴿ ألّا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى *

---

(٣٨) الكهف : ١١٠.
(٣٩) البقرة : ١٦٨.
(٤٠) القصص : ٧٧.
(٤١) البقرة : ٢٨١.
(٤٢) النحل : ٩٠.
(٤٣) الجاثية : ١٥.

ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾[٤٤] .

﴿ ثم رُدّوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[٤٥] .

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[٤٦] .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾[٤٧] .

وسعي المسلم بالخلافة وتسخيره للكون وإدارته للكائنات والخلائق على أساس حقيقة الوحدانية ، هو تحقيق وإعلاء للذات ، وبلوغ للحق ، وتلبّس بالحقيقة ، ولذلك فهو سعي حب إلى الحق وعزة واعتزاز بالحق . ومسؤولية المسلم بهذا المفهوم هي في جوهرها عاطفة حرص على الحق وتمسّك واعتزاز به ، وكل ما يعتري هذه العاطفة الصحيحة السامية من مفاهيم الخشية إنّما هي بالدرجة الأولى خشية الحب والحرص على الخير والحق الذي تمليه الفطرة وتمليه الرؤية الواضحة الخيرة في معنى الوجود وجديته وغائيته .

منطلق المسؤولية باعتباره منطلقاً مكمّلاً لمنطلق الخلافة في العقل المسلم وفي الضمير المسلم فهو الذي يفسّر لنا طاقة الحب وطاقة البذل وطاقة الضمير وطاقة الجد عند الرعيل الأوّل للإسلام ، بما يضرب به المثل في تاريخ الأمم والمجتمعات ، كما يفسّر لنا النموذج الرائع لرجال الصدر الأول للإسلام في غيبة الطمع والتظاهر والتشدّق وفي تميزهم الباهر بالزهد في الجمع والاكتناز . فبرغم قدرتهم على الكسب ، وتمكنهم من المقدرات في الجمع، وبرغم رغبتهم عن الاكتناز ، ﴿ ويُطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنّما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾[٤٨] .

منطلق المسؤولية هو ضمان استقامة الفكر الإسلامي الصحيح ، وهو ضمان الخير في منهج العقل الإسلامي المهتدي ، فالعقل المسلم والمنهج المسلم من منطلق المسؤولية الكاملة المباشرة أمام الخالق عن أدائه لدوره في خلافة الأرض ورعايتها وإعمارها وتسخير قدراتها وطاقاتها لا يقرّ له قرار ولا يستقيم له أمر إلا أن يكون أداؤه أداءً خيّراً وغايته غاية خيّرة ، قصد الخير والإصلاح في العلم والعمل والأداء هو المقياس الأوّل والأعلى في الأداء المسلم : «إنّما الأعمال بالنيّات لكل امرئ ما نوى»[٤٩] .

---

(٤٤) النجم : ٣٨ـ ٤١.
(٤٥) الأنعام : ٦٢.
(٤٦) يونس : ١٤.
(٤٧) الزلزلة : ٧ـ ٨.
(٤٨) الإنسان : ٨ـ ٩.
(٤٩) متّفق عليه

إذا اتضحت لنا معاني هذه المنطلقات الثلاثة ؛ الوحدانية والخلافة والمسؤولية ، وإذا اتضحت لنا العلاقة بينها في تكوين العقل المسلم وفي تكوين الضمير المسلم وفي بناء منهجية الفكر المسلم ؛ أمكن للمسلم الفرد وللأمّة المسلمة أن تتبين طريقها وأن تستعيد مصدر طاقتها وهداية سبيلها ، وأن تنجح في تنشئة أبنائها على المنهج الإسلامي الصحيح ، الذي يعد تأهيل الفكر المسلم والعقل المسلم للأداء الصحيح ، ويجدّد طاقته لمواصلة سير الأمّة على مدارج التاريخ والحضارة ، كقوّة سبّاقة هادية رائدة خيّرة مبدعة على هدى من الفطرة المبصرة والدين القويم .

وبإدراك حقيقة الوحدانية يصيب العقل المسلم وجهته وينجح ، وبأداء الخلافة الخيّر ينطلق ويسبق ، وبحس المسؤولية الراشدة ينضبط ويصلح ، وبهذا المنهج المتكامل يكون المسلم جادّاً ، إيجابيّاً ، راشداً ، أخلاقياً ، دائب الأداء ، دائم العطاء .

هذه منطلقات منهج الحق التي يجب أن يستعيدها العقل المسلم وأن يعضّ عليها بالنواجذ ، ولا يدع شوائب الفلسفات والثقافات الدخيلة وغشاوة الجزئيات المتوارثة ، تمنعه عن إدراك غاياته وفهم مقاصده والتمسك بأولوياته .

وبشمولية فهم الإسلام ومحكم آيات الكتاب ومقاصده ، يمكن للعقل المسلم أن يستعيد قدرته ، وأن يصحّح مسيرته ، ويصلح منهج فكره ، ويعود في مجمع الأمم والحضارات هادياً رائداً ، له قصب السبق في القدرة والعطاء والنماء إن شاء الله .

٤ ـ المفاهيم الأساسية للمنهجية الإسلامية

لا يكفي لإدراك كيفية أداء العقل المسلم أن ندرك إطار هذا العقل ومنهجيته فقط ولا المنطلقات التي يرتكز عليها ، بل لابدّ لنا من معرفة المفاهيم التي يعمل هذا العقل وهذه المنهجية على أساسها ويتحرّك بها ، وتمثّل جانبه العملي والتطبيقي .

ومن المؤسف أن المفاهيم الأساسية للمنهجية الإسلامية قد علق بها قدر كبير من الشوائب والغبش ، بسبب ما خالط فكر الأمّة من جاهليات الأمم التي دخلت الإسلام ومن ثقافاتها وفلسفاتها ومعارفها وممارساتها ، وشجّع على ذلك ضعف التزام كثير من القيادات السياسية للأمّة في العصور اللاحقة وانتهازية فكرها وممارستها ، فكان الخلط والغبش في مجال منهجية العقل المسلم هي وسيلة هامة من وسائلها لإضعاف رؤية الأمّة والسيطرة الظالمة الغاشمة على مقدّراتها ، حتى تنشغل في ممارستها المنحرفة وتوجهاتها الخاطئة عن قيادة الأمّة وتصريف شؤونها .

ومن أهم هذه المفاهيم المنهجية التي تمثِّل طاقة الحركة في منهجية العقل المسلم هي :

أ ـ غائية الخلق والوجود .

ب ـ موضوعية الحقيقة ونسبية الموقع منها .

جـ ـ حرية القرار والإرادة .

د ـ كلية التوكل .

هـ ـ السببية في أداء الفعل الإنساني .

(أ) غائية الخلق والوجود

عقيدة التوحيد ومبدأ الوحدانية هي العقيدة والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه العقلية المسلمة ، وهذه العقيدة إذا أخذت بوعي الفهم على مدلولاتها وانعكاساتها في الوجود وفي الحياة فإنها تحتم وحدة الخلق ووحدة الحياة ووحدة الإنسان ووحدة الحقيقة ، وهذه الوحدانية تحتم غائية الخلق والوجود : ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنّا فاعلين** ﴾(٥٠) . ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون * ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يُطعمون** ﴾(٥١) .

ولمّا كان الحق سبحانه وتعالى هو الخالق فإن هذا يحتم أن الخلق متّحد المصدر ، متحد الغاية ، وبفطرة العقل الإنساني وبعقيدة العقل المسلم في الوحدانية فإنّه لا يصحّ للعقل المسلم ولا يقبل منه أن لا يعي وحدة الخلق وغائيته ، وما يقوم عليه كيان الخلق من تكامل وتناسق . إن فطرة التوحيد وعقيدته في العقل المسلم تكون دليل حركة العقل المسلم في التعامل مع الكائنات والأحداث الكونية من منطلق الغائية ومن منطلق النظام ، ولا يقبل بهذا المفهوم من العقلية الإسلامية في علاقتها بالكائنات والخلائق والأحداث موقف السلبية ومسلك التواكل وعقلية الاعتباط . فالعقل المسلم والوجود المسلم باعتبار فطرته الإنسانية ووعيه ورؤيته الإسلامية هو خليفة وراع وشاهد ووصي على الكون والكائنات ، وكل كائن وكل حدث له عند الوعي المسلم معنى وغاية مسخّر من أجلها لا يصحّ له تجاهلها أو التغافل عنها أو التهوين من شأنها . غائية الخلق في دور خلافة الإنسان ، ومسؤوليته في إدارة الكون وإعماره وتسخيره تحتّم على العقل المسلم إدراك منطق حركة هذه الكائنات ونواميس أدائها حتى يتم حمل مسؤولية

---

(٥٠) الأنبياء : ١٦ ـ ١٧ .
(٥١) الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧ .

إدارتها ورعايتها وتيسيرها وتسخيرها على ما تقضي به غايات الخلق ومقتضيات الجهاد والخلافة .

إن غبش الفهم والرؤية لمفهوم الغائية ولمفهوم السببية أدّى إلى تشويه مفهوم التوكل وعقيدة القضاء والقدر وانتهى بالعقل المسلم إلى حالة من الحيرة والفوضى والعجز والتراخي وصمّته بداء التواكل والقدرية والعجز والتنسك الأعجمي ، وقضت على طاقاته وقدراته وعلى أدواره الإصلاحية الحضارية .

إن مفهوم الغائية إذا تم إدراك معناه ومدلولاته على الوجه الصحيح فهو أساس متين حصين لا يقبل بأية صورة من صور التواكل والسلبية أو العجز والتقاعس ويدفع بالنفس المسلمة وبالإنسان المسلم إلى جد السعي وطلب العلم وبذل الجهد في علاقة الإنسان بالحياة وبالكون وبالحوادث سعياً منه بالحياة إلى غاياتها وتحقيق معانيها على ما يقضي به نظام الخلق وتحكم به نواميس فطرة الحياة ومنطق حركتها .

﴿ ولم يكن له شريك في الملك وخلَق كل شيء فقدّره تقديرا ﴾[٥٢] .

﴿ صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء إنّه خبير بما تفعلون ﴾[٥٣] .

(ب) موضوعية الحقيقة ونسبية الموقع منها

مفهوم موضوعية الحقيقة تمليه على العقل المسلم فطرته المبصرة كخلق حادث زائل في كون حادث زائل ينتظمه نظام فسيح متقن بديع . ونظام الكون والحياة حقيقة يلمسها ويعايشها الإنسان بفطرته ويخضع لها ويتفاعل معها في كل لحظة من لحظات وجوده وأدائه ؛ ومحدودية الإنسان وجزئيته تجعله يدرك وجود الكون ومفهم نظامه وتمكنه من إدراك أطراف من طبيعة هذا النظام وحقائق وجوده وتكوينه ولكنه يظل غير قادر على الإحاطة الكاملة بالوجود ونظام الوجود وغاياته ومقاصد حركته .

والعقل المسلم والوعي المسلم والفطرة المسلمة باتصالاتها بأصل الوجود وخالقه ومبدعه ومكوّنه ، ووقوفها أمام حقيقة الحياة والكون ؛ فإنها لا تستغلق عليها ولا تنصرف عنها بل إنها تتمثلها وتستوعبها وتتعامل معها . وذلك لما حصلت عليه من رؤية وتصوّر كلّي ، مصدره العلم الربّاني والهداية الربّانية . وبذلك يدرك العقل المسلم غايات الحياة ومقاصدها وغايات الوجود الإنساني ومقاصده .

---

(٥٢) الفرقان : ٢.
(٥٣) النمل : ٨٨.

فالعقل المسلم وفطرته عقل وفطرة مبصرة بنور الوحي وهدايته ، ولذلك فالحقيقة لدى العقل المسلم هي حقيقة موضوعية قائمة يدرك وجودها ويدرك أبعادها ويسعى للتفاعل السليم السوي معها ومع نواميسها وسننها ، والعقل المسلم بهذا موضوعي موضوعية كاملة لا يسيّره الهوى ولا تحكمه الشهوات ، ولا تأنف نفسه الحق والصواب. والفضيلة محرّك حياته ، وسعيه هو طلب الحق والحقيقة والسعي بهما في الحياة ، في تناسق وتلاحم وانسجام مع نظام الكون ونواميس فطرته وحركته .

مفهوم الحياة والنجاح لدى العقل المسلم ليس في التفلت والفساد ، ولكنه في الانضباط والإدراك الصحيح ، والتوافق السوي مع الحق والحقيقة في نظام الحياة . والوجود الحق والحقيقة هما كمال الوجود ومناط سعيه وغاية طموحاته .

لا تناقض في العقل المسلم ولا في النظام المسلم بين ما هو حق وما هو مصلحة لكل أطراف الوجود الإنساني فرداً وجماعة . ولا انفصام في العقل المسلم بين ما هو معنى وما هو مادة وبين ما هو عاجل وما هو آجل وبين ما هو دنيا وما هو آخرة . فكل هذا يمثّل أجزاء الحقيقة في الوجود ويتسق بها ويتكامل معها .

وبهذا المفهوم وهذا التصور المتكامل يتبوّأ المسلم مكان الرعاية والمسؤولية فيما يقوم به من عمل وما يتصدّى له من أدوار ، ويسعى بالنصح لكل من حوله ، ويدير شؤونه بالمشورة وتلمّس وجه الحق والحقيقة والعدل . ففي ذلك وجه الجد والإصلاح والوجود والحياة بكل ما فيها من كائنات وما يتعلق بها من حاجات . «**فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»(٥٤) «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم**»(٥٥) والمسلم عليه واجب «**الدين النصيحة**» ثلاثاً ، قلنا : لمن ؟ قال : «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامتهم**»(٥٦) ، وأمر المسلمين (شورى بينهم) لا عصبية ولا قومية ولا حزبية ولا طائفية بما تنطوي عليه اليوم من معاني التمايز والظلم والطغيان والهوى والفساد .

وإذا كانت الحقيقة لدى العقل المسلم هي قضية موضوعية ، فهذا لا يعني محدودية الأفق ، فالحقيقة وإن كانت جوهراً واحداً لا تتغيّر ولا تتبدّل إلّا أن موقع الإنسان منها فرداً أو جماعة هو موقع جزئي يتغيّر في الزمان والمكان ، وهذا يعني نسبية الرؤية

---

(٥٤) رواه الشيخان. (٥٥) رواه أبو داود والنسائي.

(٥٦) رواه مسلم.

ونسبية الموقع ونسبية التطبيق ، والعقل المسلم يتعامل مع الحقيقة من مواقع البشر أفراداً وجماعات ، ويفرّق بذلك في التعامل والمناهج بحسب الحاجات وبحسب المواقع ، فالطفل غير البالغ ، والقادر غير العاجز ، والعالم غير الجاهل ، ومواقع التربية غير مواقع القضاء ، ومواقع السلم غير مواقع الحرب ، ومواقع الوفرة غير مواقع الندرة ، ومواقع الرخاء غير مواقع الشدّة ، ولهذا وإن تمتع العقل المسلم بالوحدة الكلية فإنه يتمتع بالتعدّد والتباين والتفاوت بحسب الحاجة وبحسب الموقع في الزمان والمكان ، دون أن يفقد القاعدة أو الدليل .

ومن منطلق الإرادة الإنسانية ونسبية الموقع من الحقيقة ، يتمتع العقل المسلم بالرحابة والتسامح الذي يضمن حرية المعتقد والفكر وتعدّد المواقف الفكرية والعقيدية والتطبيقية وتفاوتها .

والتعدّد والتفاوت والاختلاف في كيان الوجود الإسلامي لا يمثّل خطراً ولا يقوّض أساساً وإنما يمثّل متنفساً ومجال توازن وفسحة نمو واستقرار ، لأن العقل المسلم والفكر المسلم برؤيته الواضحة الجلية القائمة على هداية الوحي وقيمه ومفاهيمه ومنطلقاته يبقى قوياً ظاهراً ، تجتمع الأمّة وجمهورها على أسسه وأساسياته ، وتجعل مواقع التفاوت والتناقض أدوات تحريك ونماء ودواعي يقظة وإبداع وتجديد .

لا خوف من سيادة دولة الإسلام وتوجهاته ومقاصده ونظامه على حرية الفكر والمعتقد بل هي لحرية الفكر والمعتقد ضمان وسند ، كما أنه لا خوف على رؤية الإسلام ونظامه من حرية الفكر والمعتقد ، لأن الإسلام بنور علم الهداية الربانية واستجابة لفطرة الإنسانية السوية ، يمثّل الحقيقة الموضوعية في الحياة والوجود ، ولابدّ للحقيقة الموضوعية أن تبقى وأن تسود وأن يؤوب إليها البشر يستظلوا بظلّها وينهلوا من ينابيعها .

حال الفكر وحرية الفكر في المجتمع الإسلامي كالنهر العميق المتدفّق ، قوّته في عمقه ، وتدفّق مجراه العميق نحو غاياته ومصبّه لا يزيده فيضان شطئانه وعرضها إلّا جمالاً .

إنّ الرؤية الإسلامية كانت وما تزال في أعماقها واثقة من طاقتها وسيطرتها لا لقوّة الدولة وسيطرتها ، بل لما تمثّله من الحقيقة الصحيحة المستمدّة من علم الوحي الرباني ومنابع الفطرة السليمة . الرؤية الإسلامية ما دامت على منهجها الصحيح وبنيتها

السليمة لا تخشى التفاوت والتعارض ، لأنّ قوة الفطرة الإسلامية ستبقى دائماً هي المجرى العميق وهي توجّه الأمّة . ولا يكون التفاوت والتعارض إلّا حيوية وجمالاً يزيد الأرض خصباً وخضرة ونماء .

وهكذا فإنه لا يدرأ عن الإسلام إلّا حسن فهم الإسلام وحسن العلم به وحسن عرضه وحسن بناء نظمه على أُسس سليمة .

القهر والبغي والإكراه لا يدفع عن الإسلام ولا يقرب رؤيته من الأفهام ، ولكنه عدوان على جوهر رسالة الإسلام وجوهر حقيقة الإسلام وغايته .

﴿ لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي ﴾(٥٧) .

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٥٨) .

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أُمّة واحدة ﴾(٥٩) .

﴿ أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾(٦٠) .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربّكم ترجعون ﴾(٦١) .

﴿ فألهمها فجورها وتقواها * قد افلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها ﴾(٦٢) .

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلّا مبشّراً ونذيراً ﴾(٦٣) .

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدىً ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(٦٤) .

﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾(٦٥) .

(ج) حرية القرار والإرادة

وهذا هو المفهوم الأساسي الثالث الذي تبنى عليه دعائم العقلية والمنهجية الإسلامية وهو مفهوم حرية الإرادة الإنسانية والقرار الإنساني ومسؤولية هذه الحرية. إنّه لا يمكن فهم الرسالة الإسلامية في حياة الإنسان وإدراك معناها ومعنى حياة الرسول ﷺ وجهاده وغزواته وصراع الصدر الأوّل مع امبراطوريات فارس والروم إلا أن نفهم وندرك مفهوم حرية الإرادة الإنسانية ومسؤولية الإنسان الفردية عن هذه

---

(٥٧) البقرة : ٢٥٦.
(٥٨) الكهف : ٢٩.
(٥٩) هود : ١١٨.
(٦٠) يونس : ٩٩.
(٦١) الجاثية : ١٥.
(٦٢) الشمس : ١٠٨.
(٦٣) الإسراء : ١٠٥.
(٦٤) الأعراف : ٥٢.
(٦٥) الحجر : ٩.

الحرية .

فمغزى الحياة الدنيا في رسالة الإسلام هي امتحان لإرادة الإنسان في خلافة الأرض ، حيث يبرهن في مزاولات هذه الإرادة على نوعيتها . وهل هي إرادة خير تسعى وتتلبس طواعية بالحق والخير والعدل ، أم أنها إرادة خبيثة مستكبرة تعرض عن الحق والخير والعدل وتسعى بالهوى والفساد والإسراف في الأرض . والحياة الآخرة في رسالة الإسلام إنما هي محصلة لآثار هذه الإرادة ونوعية مزاولاتها في الحياة الدنيا تتلبس بها في الأبدية إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وكنه حرية الإرادة الإنسانية في كليات الخلق الربانية تدركها الفطرة الإنسانية كما أفصحت عنها وقررتها الرسالة الإلهية :

﴿ ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها ﴾[٦٦] .

﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[٦٧] .

﴿ وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كلّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾[٦٨].

﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[٦٩].

﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ﴾[٧٠] .

﴿ صنْعَ الله الذي أتقن كل شيء ﴾[٧١] .

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[٧٢] .

ومفهوم حرية الإرادة الإنسانية وحرية القرار الإنساني ينطوي على عدّة جوانب وأبعاد لا يستقيم فهم معناها دون فهمها والتمييز بينها ، وهذه الجوانب تتلخص في أبعاد ثلاثة هي : بُعد حرية العقيدة ، وبُعد حرية الفكر ، وبُعد حرية الأداء الاجتماعي .

---

(٦٦) الشمس : ٧ ـ ١٠.
(٦٧) النجم : ٣١.
(٦٨) الجاثية ٢٢.
(٦٩) الأعراف : ١٢٩.
(٧٠) يونس : ١٠٨.
(٧١) النمل : ٨٨.
(٧٢) الأعراف : ٥٤.

أوّلاً ـ بُعْدُ حرية العقيدة

إن الإسلام صريح قويّ حاسم في تقرير بُعد حرية العقيدة للإنسان وللإرادة الإنسانية ، ولذلك كانت حرية العقيدة هي أساس الدعوة وأساس تنظيمات الإسلام ، ودافع معاركه الكبرى ضد قوى البغي والطغيان . وانطلاقاً من مفهوم حرية العقيدة نجد الإسلام ودولة الإسلام هي ذاتها تضمن حرية العقيدة لرعاياها من غير المسلمين ، وانطلاقاً من مفهوم حرية العقيدة في الإسلام نفهم معاني رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والامراء يدعوهم إلى الإسلام ويطلب إليهم رفع يد الطغيان والقهر والاستبداد عن عامة رعاياهم حتى تكون لهم كرامة حرية العقيدة . ومن منطلق حق الإنسان في حرية العقيدة ومسؤوليته عن مزاولة هذه الحرية نجد جيوش الصدر الأول تتصدى في إيمان وعزيمة لقوى القهر والطغيان دفاعاً عن حقوق الإنسان في حرية عقيدته وتمكيناً له من أداء مسؤوليته ورداً للعدوان على الناس قهراً لهم في عقائدهم وحرية خياراتهم .

إن البعد الإسلامي في حرية العقيدة هو البعد الذي يقرر حرية الإنسان في اختيار العقيدة التي يؤمن بها ويلتزمها ، هل هي الإسلام أم هي غير الإسلام ؟ وللإنسان وحده أن يتخذ ذلك القرار وهو وحده المسؤول عنه ، والإسلام ودولته ومجتمعه عليهم واجب حماية ذلك الحق واحترام ذلك القرار وضمان نفاذه في أرض الإسلام وفي كل الأرض لكل بني الإنسان .

ومن المهم في فهم بعد الحرية فهم شروط أهلية مزاولة حقوقها ، لأن الحرية هي حق وموقف ومسؤولية ، مثلها مثل أي حق وموقف لا يمكن مزاولته في حالة من الفراغ أو الفوضى أو الاستهتار ، بل هي أحرى من غيرها بالضبط والتنظيم لما لها من أخطر الأثر في حياة الإنسان ومعنى وجوده . ولذلك لابدّ لنا أن نعي شروط التأهيل لمزاولتها وأدائها في المجتمع .

فحرية الإرادة والقرار عامة وحرية العقيدة خاصة هي حق للفرد المتمتع بقدرات الإدراك والنضج الإنساني الذي يمكنه من فهم معنى الحرية وآثارها وحمل مسؤولية مزاولتها في حياته ووجوده وفي حياة المجتمع ووجوده من حوله . ولذلك فهي حق للبالغ العاقل ، أما الطفل وأما المعتوه فلا يصحّ انتهاك حرمتهما واستغلال قصورهما للعبث بإرادتهما والتعدي على واجب وصاية أوليائهما والقيّمين على أمورهما والمسؤولين عن تربيتهما ، حتى تتحقّق لهما أهلية الحرية والقدرة على مزاولتها وحمل

مسؤوليتها وذلك ببلوغ النضج العقلي أو باسترداد الصحة العقلية .

كذلك فإن النضج الحضاري قد يكون شرطاً ضرورياً لتأهيل الإنسان لمزاولة حق الحرية وخاصة حرية العقيدة ، لأن أحوال البدائية الحضارية والتخلف الحضاري في بعض صور البداوة والتوحش قد جعل الإنسان في حالة قصور حضاري واجتماعي وذهني يحرمه القدرة على اتخاذ القرار الإنساني المسؤول ، ويحرمه أهلية الحرية ، ويحتم رعايته لبلوغ أهليتها قبل إعطائه حق مزاولتها وحمل مسؤوليتها ، وهذا ما سعى به الإسلام في عصر ظهوره في حق قبائل العرب الصحراوية الوثنية البدائية ، حيث لجأ في علاقة الدولة الإسلامية الأولى والمجتمع الإسلامي الأول بهذه القبائل إلى كل الوسائل ليعين هذه القبائل على الخلاص من حمأة مزاولاتها البدائية الهمجية وتخليصها من القصور والتخلف الحضاري الاجتماعي الذي كانت تعيشه . وكبح عدوانها عن المسلمين وأحلاف المسلمين من القبائل ، ولم يكن للمسؤولية الإسلامية الإنسانية من بد إلّا أن تُخضِع هذه القبائل المتوحشة الهمجية لنظام الإسلام الحضاري واستنقاذهم من كل مزاولات الهمجية الاجتماعية وخرافاتها الوثنية . ولذلك كان الإعلان الإسلامي الصريح بأن قضية هذه القبائل ليست قضية حرية إرادة إنسانية عقيدية وإنّما هي قضية الخضوع لنظام الإسلام وتخليصاً لهم من الهمجية الاجتماعية التي كانوا يعيشونها .

﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾(٧٣) .

﴿ لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمّة وأولئك هم المعتدون ﴾(٧٤) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾(٧٥) .

﴿ وقاتِلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(٧٦) .

﴿ وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾(٧٧) .

﴿ قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾(٧٨) .

---

(٧٣) الأنفال : ٥٦.
(٧٤) التوبة : ١٠.
(٧٥) التوبة : ٢٨.
(٧٦) التوبة : ٣٦.
(٧٧) الأنفال : ٣٩.
(٧٨) الحجرات : ١٤.

فموقف الإسلام من أعراب الصحراء الوثنيين البدائيين هو موقف رعاية وموقف تأهيل حضاري واجتماعي وليس موقف إنكار لحرية الإرادة الإنسانية المؤهلة ، أو تراجع عن موقفه الأساسي من حرية عقيدة الإنسان . لذلك كان موقف الإسلام الصريح وممارساته الملتزمة التي احترمت ورعت حق أهل الكتاب في حرية عقيدتهم رغم ما لقيه المسلمون من كيدهم وعدوانهم ، وكما قرر الإسلام ذلك الحق في نصوص صريحة أيضاً لسواهم من أهل الحضارات المؤهلين للخيار كالفرس والمجوس ، رغم أنهم من الوثنيين المشركين عبدة النار . وبهذا يتضح لنا دون أدنى غبش ان حرية العقيدة مفهوم إسلامي أساسي في تكوين العقلية والمنهجية الإسلامية الحضارية ، لا يستقيم العقل المسلم ولا المنهج المسلم ولا أداؤهما إلّا أن يستقيم فهم هذا البُعد في تكوينهما .

ثانياً ـ بُعْدُ حرية الفكر

وبُعد حرية الفكر الإنساني هو بُعد مكمّل لبُعد حرية العقيدة ومتولّد عنه ، وهذا البعد يتعلّق بحرية الإرادة الإنسانية وأخلاقية القرار الإنساني ، ولكن ضمن إطار الالتزام العقيدي الأشمل . فالملتزم بتصور عقيدي عام معيّن يواجَه ضمن هذا الإطار بمواقف وقرارات لا تنتهي في فهم قضايا هذا التصوّر الذي يلتزم به ، وانعكاساته في الحياة والعلاقات الإنسانية . والإسلام يحرر الإرادة الإنسانية من استبداد الكهنوت وطغيانه ويعطي لها حرية القناعة والقرار .

ولا مجال في مجتمع الإسلام لإملاء القناعة الضميرية والأخلاقية على النفس الإنسانية على غير ما يقضي به منهج الإقناع والقبول بإرادة حرة ، فإن ذلك ليس من الفطرة الإنسانية السليمة ، وليس من الغاية الإنسانية المشروعية ، ولا يقبل به الإسلام منهجاً في الحياة الإنسانية أو في المجتمع الإسلامي والإنساني . لذلك يبقى في منهج الإسلام وعقليته أن موئل القرار النهائي للإنسان ، يتعلق بإرادته الحرة ، وما تقضي به من خيار ، تُسأل وحدها عنه ، وتجني وحدها آثاره في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة . وحرية الفكر لا تعني عشوائية القرار ولا تعني جهالة القرار ، فإن العقل المسلم والمنهج المسلم عقل ومنهج جاد مسؤول ، ولا مجال للغائية والجدية والمسؤولية إلّا باستكمال السعي الإنساني لشروط القرار المستنير من علم وفحص وتدبر ، ولكنه على كل الأحوال يبقى قرار الإرادة الإنسانية معلقاً بالقناعة الضميرية والأخلاقية للإنسان الفرد

وحده دون قسر ولا قهر : «**استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(٧٩) .

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾(٨٠) . ﴿ ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزرُ وازرةٌ وزْر أخرى ﴾(٨١) .

وحرية الفكر والقناعة الفكرية حق وموقف أساسي يتطلبه تحقيق معنى الوجود الإنساني وحمل أعباء مسؤولية الخلافة الإنسانية في الأرض ، وما يترتب عليهما في المحصلة الكلية النهائية من سعي دائب مستمر في ترقيه كافة وجوه الحياة وإصلاحها وإعمارها . فالاستبداد بفكر الإنسان والاستبداد بقناعته الضميرية ، قضاء على معنى الحياة ومسؤولية الحياة ، لا يقبلها منهجه ، ولا يقوم العقل المسلم إلّا على أساس التزام حق الإنسان في حرية العقيدة والفكر وإنفاذ ذلك الحق وذلك الالتزام .

والفكر المسلم في المجتمع المسلم فكر حر مبدع تتنوع عطاءاته وتتكامل ، ولكنه في النهاية لا يتعلق مساره وانطلاقه وإبداعه إلّا بغاية وجود الإنسان في الإصلاح والإعمار وعدم الإفساد على ما تقرره مبادئ العقيدة وأمّهات مقاصدها وأسس الرؤية الإسلامية ، وتقتضيه ضوابط النظام الاجتماعي وضروراته .

وإذا كانت حرية العقيدة والرؤية الأساسية الكلية هي قضية لها جوانبها المطلقة والكلية ، فإن حرية الفكر هي في أساسها انعكاسات للرؤية العقيدية الكلية على واقع الحياة وقضاياها ، واتخاذ مواقف تجاه قضاياها وأسلوب التعامل معها . وعلى حرية العقيدة وحرية الفكر يترتب الأداء والتصرف الاجتماعي للإنسان ، الذي لا يمثل جانباً نظرياً تصورياً ، ولكنه فعلٌ وأداءٌ وممارسة . وتحكمه إلى جانب التطلعات والطموحات والرؤى العقيدية والفكرية الاعتبارات العلمية للواقع ، والإمكانات والمتطلبات ، وتضع حدوداً وقيوداً على مدى هذا النوع من الحرية .

إن من المهم معرفة الجانب العملي في قضايا الحريات ، لان الجانب النظري والفلسفي وحده لا يغني ولا يقدم التفسير الكامل لواقع الممارسة الاجتماعية . إن واقع الممارسة الاجتماعية للحريات وحماية حقوق الأفراد لا يعتمد الأسس النظرية وحدها ولكنه يخضع للاعتبارات الواقعية . فكلما كانت المنطلقات النظرية والفلسفية سليمة ،

---

(٧٩) رواه الامام أحمد في مسنده. (٨٠) النجم : ٣٩.

(٨١) الإسراء : ١٥.

وكلّما كان فكر الأمة معافى؛ كانت الأمة ومؤسساتها أقدر على التسامح وإفساح المجال أمام الأفراد والفئات لممارسة حقوقهم في حرية الفكر والعقيدة . وكلما كانت مسيرة الأمة متعثرة وفكر قاعدتها الأساسية وممارساتها الحضارية متعثّراً؛ كلّما كانت أقل ميلاً إلى التسامح وإفساح المجال تجاه الفكر المعترض والفكر المغاير . فالضعف أميل للتشدّد . والقوة ـ بالخلفية الفلسفية السليمة ـ أميل للتسامح وإفساح المجال للتعدد . فإذا أضفنا مخاوف الغزو الفكري والتدبير التسلطي الاستعماري ، أصبحت إمكانات التفهم أضعف والحاجة أكبر إلى الحكمة وضبط النفس .

ثالثاً ـ بُعدُ حرية الأداء الاجتماعي

إن هذا البعد من أبعاد حركة الوجود الإنساني يتصل بالجانب العملي في هذا الوجود . هو بذلك يتصل بمجموع الأفعال والتصرفات وتبادل المصالح والعلاقات بين الفرد والمجتمع ، حيث إنّ وجود الفرد الإنساني لا يمكن أن يقوم ولا أن يستمر في الحياة إلّا أن يكون في مجتمع إنساني يتبادل الفرد فيه مع بقية أفراد المجتمع ومؤسساته العلاقات والمصالح .

إن وجود الفرد في المجتمع يضع بالضرورة قيوداً وشروطاً على حركته وعلى أدائه الإنساني بطبيعة بناء المجتمع ومختلف مكوّناته ، وما يتصل بواقعه وإمكاناته ، والتحديات التي تواجهه ، وموقع الفرد منه ، ومن بقية أعضاء المجتمع ، كما تتعلق في النهاية بالغاية الإعمارية التي تمليها الفطرة السوية ، عن وجود الإنسان والحياة والمجتمع . وإذا كانت حرية العقيدة وحرية الفكر تتعلقان بالفرد وذاتيته فإن الفعل والأداء الإنساني لا يقف حدّه وأثره عند الفرد وإنما يتعداه إلى المجتمع ومؤسساته وأفراده وموارده وطاقاته . ولهذا فإن الفعل والأداء الإنساني له طبيعة جماعية ، أي أنه يجب أن يتم وفق تصوّر يتفاعل ويتكامل مع الجماعة وبنائها وقرارها الجماعي ، في كيفية الأفعال ، كماً ونوعاً ، وفي كيفية بلوغ المجتمع وأفراده ، وتحقيق غايتهم الحياتية الإعمارية والإصلاحية .

والبعد الجماعي للفعل الاجتماعي لا يعني الاستبداد بإرادة الأفراد في أدائهم وأفعالهم الاجتماعية ، وإنما يعني أن حرية الأداء والأفعال للفرد في المجتمع يجب أن تضبط بضوابط يقصد منها تنسيق تصرّفات الأفراد وأدائهم وتكاملهم بما يحقق إرادة الفرد الإصلاحية وحاجته في ضوء إمكاناته وإمكانات الجماعة وأفرادها وحاجتهم

وتوجه إرادتهم . وهذا يعني أن هذه الضوابط هي قرارات تتعلق بمجموع أفراد المجتمع في ضوء غايات الوجود الإنساني الإصلاحية الإعمارية ، وأن حريات الفرد العقيدية والفكرية لا يمكن لها أن تأخذ سبيلها فيما وراء الاعتقاد والفكر إلى الأداء الاجتماعي ، إلّا في حدود غايات إصلاحية في وجود الجماعة الإنسانية ، وفي حدود ما قررته من حدود وضوابط للفعل والعلاقات .

فضوابط الجماعة وقوانينها وتشريعاتها ومؤسساتها العامة ونظامها العام يقصد من مجموعها تحقيق ما قررته الجماعة من غايات إصلاحية إعمارية ، وتوفير أكبر قدر من المجال لأداء الأفراد ضمن هذه الحدود ، والتعبير بالفعل والأداء عن إرادتهم وتوجهات فكرهم وقناعاتهم . وضوابط المجتمع والنظام العام يصدران عن رؤية جماعة الأفراد ، وإذا كان للفرد الحرية في الاعتقاد والتفكير بما تمليه عليه قناعته الضميرية وتصوّره الذهني فإنه لا يصحّ له العمل والتصرف على غير مقتضى النظام العام ، وضوابطه وحدوده ومقرراته . لأن تصرف الفرد من منطلق حق حرية الفكر والقناعة دون مراعاة لضوابط النظام العام يجعل الحرية الفكرية وسيلة إلى إشاعة الفوضى في الحياة الاجتماعية ، وهي حالة تضيع معها الحقوق والحريات كافة ، وتنعدم فيها معاني الوجود والحياة الإنسانية .

وحرية العقيدة والفكر في إطلاقهما وانطلاقهما مع انضباط حرية الأداء والفعل الإنساني في حدود غايات إصلاحية وإعمارية للمجتمع تنضبط بضوابط النظام العام ، فإن ذلك هو الذي يجعل حرية العقيدة والفكر قوة دافعة مستمرة للتجديد والإصلاح المستمر في الحياة ، وليست طاقة تدمير وتخريب وفوضى في كيان المجتمع وعلاقاته وسير حركته وأدائه .

إن مشروعية الفعل والأداء والتصرف الفردي يرتبط بالتزامه غاية الإصلاح وضوابط النظام العام الصادر عن إرادة الجماعة وقرار جمهور أفرادها . كما أن قرار الجماعة يستمدّ في أعلى مستوياته مشروعيته من الغرض منه في تحقيق فطرة غاية الوجود الإنساني الإصلاحية الإعمارية على الأرض ، وهو في المفهوم الإسلامي والتطور الإسلامي مزاولة الإنسان لمسؤوليات الخلافة في إعمار الكون وإصلاحه . وحين يجاوز فعل الفرد أيّاً كان نوعه ضوابط النظام العام الذي شرعته الجماعة فإنه يفقد مشروعيته ، كما أن ضوابط النظام العام تفقد مشروعيتها إذا لم تهدف إلى رعاية

حقوق الأفراد في حرية العقيدة والفكر ، وفي حرية التعبير عن إرادتهم في حدود الضوابط الضرورية لسير أداء النظام الاجتماعي ، وتوفير أكبر قدر من المجال للتعبير عن هذه الإرادات في تلك الحدود ما دام يتحقق فيها مفهوم الالتزام بالقصد الإعماري والإصلاحي وما دامت تلتزم ضوابط النظام العام للمجتمع .

والفعل والأداء الفردي المسلم ، والتشريع والنظام العام المسلم في المجتمع المسلم ، يستمدّ كلاهما مشروعيتهما ومجالاتهما من أصل الالتزام الإرادي بالإسلام وغاياته ومقاصده ومبادئه وقيمه وأحكامه . ولا يصحّ للمشرّع المسلم في المجتمع المسلم أن يتجاوز الإسلام وغاياته وقيمه فيما يشرع من نظم وضوابط وأحكام كل غاياتها ومقاصدها هي إطلاق طاقات البشر في حمل مسؤولية الإنسان في خلافة الأرض وإصلاحها وإعمارها . كما لا يصح للفعل والتصرف المسلم أن يتجاوز الالتزام بالإسلام ، وتظل حرية التفكير والتعبير الملتزم بالأسس والغايات الإصلاحية والإعمارية هي الوسيلة لتفاعل الرأي والرؤية في الجماعة بما يحقق حيوية الرؤية والرأي والتشريع وتطوير الأنظمة والسياسات العامة في المجتمع .

ومن هنا فحرية العقيدة والفكر مع ضبط الفعل في نظام الدولة الإسلامية تؤدي إلى جعل الفكر الحر وسيلة دائمة دائبة للتدبر والإبداع والتطور ، ودفع عجلة الحياة وتوجيهها إلى غاياتها الخيرة ، كما يفسح أكبر قدر من المجال للفعل والتصرف الإنساني في ضوء مجموع حقوق بقية أفراد المجتمع ومقتضيات حرياتهم العقيدية والفكرية ، وإمكانات المجتمع ، وطبيعة التحديات التي تواجهه .

ولتحقيق تلك المفاهيم في الحرية وتهيئة مجالاتها كانت الإباحة أصلاً عاماً من أصول منهج الإسلام ونظامه لا يحده إلّا ما قضت فيه نصوص الوحي الصريح المحكم، وأرشد إليه العلم اليقيني الإلهي أو ما اقتضته سنن الفطرة وأوجبته المصالح الأساسية أو ألجأت إليه الضرورات الملحة .

إن حسن إدراك مفهوم حرية القرار والإرادة الإنسانية في الإسلام وفهم معنى منطلق الوحدانية في معنى عضوية الإنسان في المجتمع الإنساني ، ومعنى منطلق الخلافة وغايتها الإصلاحية في حياة الإنسان ووجوده ، ومعنى منطلق المسؤولية في علاقات المجتمع الإسلامي وأداء أفراده ومؤسساته ، أمر على غاية كبيرة من الأهمية ودون إدراك ذلك لن يستطيع العقل المسلم أن يحرر نفسه من التقليد الأعمى والتطرّف

والعقم الفكري والحضاري الذي يسد المنافذ على كل فكر جديد وعلاج نافع لأدواء الأمّة وقصورها الإبداعي والحضاري .

وفي ضوء هذه المنطلقات ندرك معنى مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام . فهو من جانب حرية الاعتقاد وحرية الفكر نصح وموعظة وإرشاد وتوجيه، وهو من جانب الأداء الاجتماعي جهاد وفعل وبذل وقدرة حماية للمجتمع وحقوقه وكيان نظامه العام حتى لا تغرق سفينته ، ولا يتصدع بنيانه ، ولا تعمّه الفوضى والفساد ، فتتحطّم غاية الحياة والمجتمع الإصلاحية الإعمارية .

(د) كلية التوكل

وهو المفهوم الرابع من المفاهيم الأساسية للمنهجية الإسلامية . فالتوكل هو اعتماد القلب المؤمن على الله والثقة به ، والقبول بقضاء الله وقدره في كل ما يتعلق بالحياة وما يلقاه الإنسان فيها وما ينتهي إليه نصيبه منها .

والتوكل هو إيمان القلب بقدرة الله وحكمته وعدله ومآل كل الأمر إليه .

وتوكل القلب المؤمن إنّما يتأتى من إيمانه بالغيب وكليات عالم الغيب التي يدبرها ربّ السماوات والأرض ، ويحكم أمرها ويحيط بعلمها وحده لا شريك له .

وتوكل المسلم هو فهم وإدراك وحس فطري إيماني مرهف يمثّل مصدراً من أهم مصادر قوّة المسلم وطاقته النفسية الهائلة التي تتفجر منها ينابيع الصبر والمصابرة والمجاهدة وينابيع الرضى والسعادة .

والسبب في أن توكل المسلم مصدر من مصادر قوته هو أنه وسيلة إدراكه وتعامله مع الكليات الربانية في الكون والحياة ، من منطلق الثقة واليقين ، فالمسلم بإيمانه وبفطرته يدرك أن جهده وسعيه يتعلق في قيامه بواجباته في خلافة عالم الشهادة ، وهو يعلم أن جهده وسعيه إنما في أن يؤدي دوره ويحمل مسؤوليته من منطلق الأسباب والسنن التي أودعها الله في الكائنات ، ومكن لعقله وجهده من معرفتها وتسخيرها والتعامل معها ، أما مجموع الأسباب وسير الكائنات ، وكليات تفاعلاتها ، فهو يعلم أن منطقه وعقله لا يحيطان بها وأنه لا يحيط بها إلّا الخالق سبحانه وتعالى ، ولابدّ له من التسليم في أن مرد الأمر بشأن كلياتها إنما هو إلى الله سبحانه وتعالى .

﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾[٨٢] .

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[٨٣] .

﴿ وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا ﴾[٨٤] .

﴿ ولا يُحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء ﴾[٨٥] .

﴿ ربنا وسعْتَ كلّ شيء رحمةً وعلما ﴾[٨٦] .

ولذلك فإن المسلم يتعامل مع الكليات الربانية في الحياة والوجود من منطلق الثقة بالله والرضى والتسليم في عواقب الأمور على ما قضى الله وقدر . وخلاصة عقيدة المسلم ومنهج عقليته بشأن الكليات الربانية في الحياة والوجود هي أنها كلها في عواقبها خير ، فهي خير بالشكر على النعمة ، وهي خير بالصبر على الابتلاء ، وهي خير بالتوفيق في الدنيا ، وهي خير بالأجر وحسن الثواب على كل حال في الآخرة . عقيدة المسلم بشأن الكليات الربانية في الحياة والوجود هي إيمان بحسن مآب سعي المرء المسلم مهما كان نصيب سعيه وأدائه من متاع الدنيا وبلائه فيها ، وهو إيمان بكلّيّة نصر الحق وأمة الحق وجهاد أهل الحق ومآلهم ، وخسران الباطل وأهله في كلية لقاء الأمم على ساحة التاريخ ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

﴿ ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[٨٧] .

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[٨٨] .

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا ﴾[٨٩] .

﴿ وجاهِدوا في الله حق جهاده ﴾[٩٠] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبت أقدامكم ﴾[٩١] .

﴿ إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[٩٢].

﴿ نِعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٩٣] .

---

(٨٢) آل عمران : ١٥٤.
(٨٣) الأعراف : ٥٤.
(٨٤) الإسراء : ٨٥.
(٨٥) البقرة : ٢٥٥.
(٨٦) غافر : ٧.
(٨٧) محمد : ٣١.
(٨٨) الأنبياء : ٣٥.
(٨٩) العنكبوت : ٦٩.
(٩٠) الحج : ٧٨.
(٩١) محمد : ٧.
(٩٢) هود : ٨٨ .
(٩٣) العنكبوت : ٥٩.

﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٩٤] .
﴿ وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ﴾[٩٥] .

والتوكل غير التواكل ، فالتوكل هو ثقة المسلم وتسليمه في أمر الكليات الربانية التي لا يعلم أمرها وحكمتها ولا يسير دفتها إلّا الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوّة وطمأنينة ورضى يتخلل حياة المسلم ، ويؤول به في كليات الوجود إلى النجاح والفلاح وحسن المآب .

أما التواكل فهو من معاني العجز والتقصير والقصور فيما يتعلق بأمر الحياة ودار الشهادة ومقتضيات السعي بالسنن والنواميس التي سخّرها الله للإنسان في هذه الحياة ، وعلّق بسعيه فيها مسؤوليته في خلافة الأرض وتحقيق معنى الحياة والوجود ، إن التواكل بهذا المفهوم هو التقصير في أداء السعي وبذل الجهد وتدبر الأمور ، وهو بذلك عصيان لأمر الله سبحانه وتعالى ومخالفة لمقتضى الفطرة السوية للإنسان في وجوب السعي في الحياة بالأسباب لتحقيق النفع والصلاح والإعمار ، وليس من التوكل التقصير في السعي بالأسباب وطلب الوسائل واتباع النواميس ، فذلك هو جوهر مسؤولية الإنسان في هذه الحياة وموضع امتحان إرادته وغاية وجوده .

إن التواكل هو فساد في العقيدة وضلال وضياع في السعي ، ولذلك أجاب المصطفى ﷺ عن سؤال الأعرابي الذي لم يميّز بين التوكل والتواكل فأرشده إلى الرؤية البيّنة الواضحة حين قال له ﷺ **«اعقلها وتوكل»**[٩٦] ومن ذات المنطلق ، ومن ذات الفهم ، وبذات المنهج ، أجاب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ظن في أن اتقاء أرض الطاعون واتقاء وبائه والسعي إلى عدم الوقوع في براثنه ، والنجاة من عدواه أنه هرب من قدر الله ، وأن التفريط في طلب الأسباب ، والسعي بما تحكم به النواميس ، وتقرّره السنن الربانية التي أودعها الله في الكون والكائنات ، وسخّرها للإنسان ومكّنه من القدرة عليها ، إنما هو من باب التوكّل على الله ، فكان جواب الخليفة الراشد أوضح من فلق الصبح حين قال : **«أفرّ من قدر الله إلى قدر الله»**. فسنّة العدوى من قدر الله ، وسنّة الوقاية من العدوى من قدر الله ، فكل الأمر قدر الله والسعي بالأسباب

---

(٩٤) الشورى : ٣٦. (٩٥) هود : ١٢٣.
(٩٦) رواه الترمذي في سننه وابن حبان في صحيحه.

والسنن هو من قضاء الله وطاعته ، لا من باب كفرانه وعدم التوكل عليه .

هذا هو التفريق والوضوح في معنى التوكل والتواكل في ما تقضي به الفطرة السوية للإنسان وما كلّف الله سبحانه وتعالى الإنسان به من أمر خلافة الأرض وإدارتها ورعايتها وتسخيرها ، ومسؤولية السعي فيها بالإصلاح والإعمار ، فالتواكل هو ممّا تنكره الفطرة الإنسانية السوية ، وهو ليس من الإسلام في شيء ولا يتعلق بمعنى التوكل الإسلامي بأي صورة من الصور ، ولا يمتّ بأي حال من الأحوال إلى عقيدة السلف الأول في القضاء والقدر ، وهو يتنافى مع نموذج حياة رسول الإسلام ﷺ وحياة أصحابه وجهادهم وسعيهم بالسنن والأسباب والتفكر والتدبّر في كل ما كان يعرض لهم من أمر وما كان يواجههم من أحداث .

(هـ) السببية في أداء الفعل الإنساني

السببية هي مفهوم أساسي في حياة الإنسان المسلم وتكوين عقليته وبناء منهج فكره . ففطرة الإنسان وعقيدة المسلم توضّح له أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق والكائنات ، وأودعها السنن والنواميس ، وأوكل أمر إدارتها ورعايتها وتسخيرها إلى الإنسان للسعي في أمرها بالإصلاح والإعمار ، وقد مكن الله سبحانه وتعالى للإنسان القيام بمسؤولياته والتعبير عن إرادته بواسطة الفعل بالأسباب ، وما تقتضيه من علاقات السنن والنواميس . ولذلك فدون السببية لا مجال للعقل المسلم ولا سبيل للفطرة الإنسانية من وسيلة إلى أداء مسؤولياتها في الخلافة وإدارة الكائنات وتسخيرها ، إلّا بالأسباب واتخاذها والسعي بها بكل جدية وفي كل أمر من أمور الحياة .

والإنسان إذا ما سعى بالأسباب وسخّر بها السنن والنواميس للتعبير عن إرادته وأداء واجباته في خلافة الأرض فإنه قد أدّى واجبه واستجاب لفطرته ، وحمل مسؤوليته في التعامل مع نظام الحياة والكون ، وليس من شأنه - في المحصلة النهائية - تحديد موقع جهده وسعيه من خارطة الكليات الربانية ، فليس هذا من مسؤوليته ولا في حدود علمه أو إدراكه .

وحول المعاني والمفاهيم السابقة يمكن أن نورد الآيات البيّنات التالية :

﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلَق كل شيء فقدره تقديرا ﴾(٩٧) .

﴿ سبِّحِ اسمَ ربِّك الأعلَى * الذي خلَق فسوّى * والذي قدّر فهَدى ﴾(٩٨) .

﴿ صنْعَ اللهِ الذي أتقَن كلّ شيء إنّه خبير بما تفعلون ﴾(٩٩) .

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلْق الله ﴾(١٠٠) .

﴿ وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتُجزي كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾(١٠١) .

﴿ قد خلَتْ من قبلكم سُننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين ﴾(١٠٢) .

﴿ إنّا مكّنّا له في الأرض وآتيناه من كلّ شيء سبباً ﴾(١٠٣) .

﴿ ألّا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى * وأنّ سعيه سوف يُرى * ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ﴾(١٠٤) .

﴿ وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون ﴾(١٠٥) .

﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليَجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾(١٠٦) .

﴿ الذي خلَق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملا ﴾(١٠٧) .

﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾(١٠٨) .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾(١٠٩) .

هذا الإدراك لمعنى وجود الإنسان في الحياة وما تهدي إليه فطرته في علاقته بالخلائق والكائنات تجعل من الواضح للإنسان أن وسيلته ومآل مسؤوليته في هذه الحياة ، إنّما تتعلق بالأسباب وبإدارة السنن والنواميس التي أودعها الله النفوس

---

(٩٧) الفرقان : ٢.
(٩٨) الأعلى : ١ ـ ٣.
(٩٩) النمل : ٨٨.
(١٠٠) الروم : ٣٠.
(١٠١) الجاثية : ٢٢.
(١٠٢) آل عمران : ١٣٧.
(١٠٣) الكهف : ٨٤.
(١٠٤) النجم : ٣٨ ـ ٤١.
(١٠٥) الجاثية : ١٣.
(١٠٦) النجم : ٣١.
(١٠٧) الملك : ٢.
(١٠٨) الأعراف : ١٢٩.
(١٠٩) الأنبياء : ١٦.

والخلائق والكائنات . وأن دوره إنما يكون بالفعل من خلال هذه الأسباب والسنن ، والسعي بمقتضاها . وعلى أساس منها يتم بناء العقل وإدراكه ومنطقه في التعامل مع الحياة والكائنات ، وأنه دونها تنتفي مسؤولية الإنسان ، وينقطع أداؤه ، ويعجز عقله ، وينعدم إدراكه ، هذا الفهم والإدراك هو الذي يفسّر لنا منهج رسول الله ﷺ ومنهج الصدر الأول وجهادهم واجتهادهم وتدبيرهم وتدبّرهم وسعيهم وأخذهم بالأسباب وطلب السنن والنواميس في قوة وجدية وثقة ورضى واطمئنان . والسببية مفهوم أساسي في أداء العقلية الإسلامية وفي بناء المنهجية الإسلامية . ولا مجال للفعل الإسلامي ولا للأداء الإسلامي دون فهم موضع السببية منه ، ودون بناء الإرادة الإسلامية والفعل الإسلامي على مفهوم السببية وجدية التزامها في العمل والنظر والتدبّر .

وبثقة التوكل في إيمان المسلم وإقدامه على مواجهة العقبات والتحديات ، وبجدّية في العمل والسعي في الأخذ بالأسباب وتسخير السنن ، تكون قوّة المسلم ، وتكون قدرته ، ويكون إبداعه ويكون عطاؤه ، وعندئذ ـ وقد أدّى المسلم واجبه وحمل مسؤوليته بإلحاق العمل الصالح بالإيمان ـ يكون مستحقاً لوعد الله سبحانه وتعالى بتمكين المؤمنين وتأييدهم ونصره لهم على ما يدبر من عظيم قدرته وهيمنته وواسع علمه ورحمته .

وما شاهدناه في حياة الرسول ﷺ وسلفه من جدية التدبير والتفكير ، وجدية الأخذ بالأسباب مع عظيم الجرأة والإقدام ، هو ثمرة هذا الفهم وهذا المنهج . فكانت القدرة وكانت القوة وكان النصر .

وإذا شاء المسلم اليوم أن يتطلع إلى ما حقّقه ذلك السلف من عطاء ومن قدرة وما مكنهم الله به من نصر فليس له ذلك إلّا بحمل مسؤوليته وأخذ نفسه ومنهجه بجدّية التفكير والتدبّر والنظر والبحث والسعي بالأسباب ، وما تقضي به سنن الخلق في مختلف مجالات الحياة على وجوهها الاجتماعية والطبيعية والتطبيقية والتقنية ، وعليه في الوقت نفسه أن يترك أمر الكليات الربانية لصاحبها ومدبّرها جلّ وعلا ، فذلك شأنه يجريه على ما يقضي به واسع علمه ورحمته فيما يهب ويمنح من أجر وتمكين ونصر .

إن تخلّي العقل المسلم والمنهج المسلم عن دوره في حمل مسؤولياته في عالم

الأسباب ، والركون إلى القصور والتقصير فيما هو مطلوب منه ومطالب به من حمل المسؤوليات وجلب الأسباب ، واشتغاله بدلاً عن ذلك بالحديث عن أمر الله ، وكليات أقداره الربانية ، والتمني عليه ، بوعود النصر والتمكين ، كل ذلك مما لا يستقيم وفطرة الخلق ، وعقيدة الإسلام ، وليس له من نتيجة إلّا الانحطاط والتخلف والوبال .

إذا أخذ علماؤنا بهذا المنهج في معاملهم ، وأساتذتنا في مدارسهم ، وعمّالنا في مصانعهم ، وجنودنا في ثغورهم ، وإذا نشأ عليه أبناؤها ، وتدربوا عليه ، نكون بذلك قد وفّينا دورنا وحملنا مسؤولياتنا وأصبحنا أهلاً للخلافة والهداية والتمكين بإذن الله . **﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ﴾**(١١٠) .

ننتقل من هذا إلى قضية مجال عمل الفكر المسلم ، فبتأثير التخلف وعزلة القيادة الفكرية ، وبتأثير مفهوم الدين في التجربة الغربية ؛ فإن مجال عمل الفكر المسلم ومنهجيته يكاد ينحصر في قضايا روحية وقضايا شخصية . ولكن من الواضح أن أداء منهجية الفكر المسلم هي مجال يمتدّ بامتداد الحياة وامتداد وسائلها وهو ما سنتعرض له فيما سيأتي من قول .

٥ ـ خصائص منهجية الفكر الإسلامي : شمولية المجال وشمولية الوسيلة

إن منهجية الفكر الإسلامي هي منهجية شمولية تبحث وتوجّه نشاط الإنسان المسلم والعقل المسلم في وجوه إصلاح الحياة كافة وتنظيم أدائها ورعايتها وتطوير طاقتها وإمكاناتها على ما تقتضيه غاية الحياة ووجود الإنسان والكائنات نوعاً وكمّاً .

ومنهجية الفكر الإسلامي ـ لتميزها بشمولية المجال ـ تتميّز بشمولية الوسيلة ، فالحياة بكل كائناتها ومكوناتها مجال لأداء السعي المسلم ، ولذلك فهو مكلّف بالسعي بكل وسيلة في طاقته لطلب العلم والمعرفة بشؤون الحياة والكائنات ، ومكلّف بكل الجدّية والإبداع بالسعي بكل الطرق للتمكن من الوسائل اللازمة لتسخير الحياة والكائنات ورعايتها وإدارتها وتنظيم شؤونها .

ما من وسيلة صالحة من وسائل البحث العلمي وطلب المعرفة إلّا والعقل المسلم

---

(١١٠) النساء : ١٢٢ .

مكلّف باستخدامها والإفادة منها في توليد المعرفة والقدرة على الأداء ، تستوي في ذلك الوسائل المادية ، والمعنوية ، والكمية ، والكيفية ، كما تستوي في ذلك الوسائل الاستقرائية ، والاستنباطية ، والعلمية ، والتجريبية ، والتنظيرية والتحليلية . لا قيد على الوسيلة أيّاً كانت إلّا أن تكون وسيلة صحيحة هادفة إلى الإصلاح ، تنصرف في موقعها وأدائها إلى عون الإنسان على أداء دوره الخيّر في خلافة الأرض ، وليس من العلم ولا من المعرفة ولا من السعي الصحيح أيّ أمر أو وسيلة تنافي غايات فطرة الإنسان السليمة في الإصلاح والإعمار وخلافة الأرض ، أو تؤدي بالإنسان إلى الخوض الضالّ في شأن عالم الغيب ممّا لا يقدر العقل الإنساني على إدراكه ، ولم يؤهل للنظر فيه ، ولم يكلف بمسؤوليات العلم به وإدراكه بأكثر ممّا تنزل به الوحي إليه مما يقتضيه أداؤه لدوره وغاية وجوده في الحياة والأرض .

فانصراف العقل المسلم إلى شؤون الحياة وإصلاحها وإعمارها هو مجال أدائه للأداء ، أما ما وراء ذلك من وثنيات الضلال وسفسطات اللاهوت فهو من شؤون عالم الغيب وهو صرْفٌ للعقل المسلم عن واجباته وتدمير لمصدر قوته في الانصراف الكامل الجاد لإعمار عالم الشهادة . وهو ما كان سبباً في أول الأمر في نجاح الإنسان المسلم وتفوّقه وتفوّق رجاله ، وقد أدّى غبش الرؤية فيما بعد إلى تعاظم ضلال العقل المسلم وضلال جهوده واضمحلال طاقة اندفاعه وعزمه في بحر من الكلام والظنون والفرقة لا سبيل إلى النجاة منها إلا بطرحها خلف الظهر ، والالتزام الواعي بعقيدة الإسلام وإطار فكره الصحيح ، وانصراف طاقته إلى أداء مسؤولياته الإصلاحية في عالم الشهادة وخلافة الأرض ، واتخاذ كل ما يقدر عليه من حيلة ووسيلة للعمل والإبداع في أدائها كما خلقه الله وأراد له على هذه الأرض .

فإذا أدركنا مفهوم شمولية الفكر الإسلامي ومنهجيته ، أدركنا أن بناء العلم والمعرفة والفكر والثقافة المسلمة يجب أن يحقق معرفة الواقع الحياتي للأفراد والجماعات ، ولشعوب الإسلام ، ولأمة الإسلام ، ولأمم الإنسانية قاطبة ، وأن تكون تلك المعرفة معرفة صحيحة في حاجاتها وتطلعاتها وإمكاناتها وعلاقاتها وتحدياتها ، وأن البناء العلمي والمعرفي الذي لا يحقق تلك الأغراض لا يعتبر بناءً ولا منهجاً إسلامياً صحيحاً ، ولا يعتدّ به في ميزان رسالة الإسلام وخلافة الإنسان .

كذلك فإن أيّ بناء للعلم والمعرفة والفكر والثقافة المسلمة لا يوفّر للعقل المسلم

الإمكانات التي يتمّ بها تحقيق دقة الفهم وسلامة الإدراك وضبط الأداء على أفضل ما يكون الفهم والأداء، فهو ليس بناءً ولا منهجاً إسلامياً للمعرفة والفكر والحياة الإسلامية.

دون شمولية المنهج مجالاً ووسيلة، فإنه لا مجال لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة وبناء الخلافة كمّاً وكيفاً، قوة وقدرة، كما بدأت وكما أراد الله لها بهداية الدين القويم: ﴿كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(١١١).

وإذا كان حسن فهم الخلافة الراشدة وشمولية منهجها - على قرب العهد بعهد الرسالة، وعلى عظيم الانشغال بتحديات العصر، وعلى قلّة الزاد بمؤسسات البناء والحضارة - قد فتح لها أبواب الاجتهاد في السياسة والنظم والبناء بما يشهد به التاريخ وتحفل بسيرته الكتب، لذلك لابدّ لنا من فهم منهج الصدر الأول ومنطلقاته في العمل ومعرفة مصادر طاقاته في الأداء والإبداع والاجتهاد، وإدراك أساليبه في تطوير السياسات والمؤسسات، وأسباب نجاحه في تحقيق المقاصد والغايات.

لقد أمكن لأجيال الآباء الأوائل من التابعين، ومن لحق بهم من رجال الفكر والدعوة العلم - رغم عزلتهم - حماية نصوص الوحي والرسالة، والذود عنهما من أيدي العبث والتحريف والضياع، ممّا تشهد بكماله الدراسات الشرعية في علوم القرآن الكريم والسنة. ولكن بالمقابل فإن علوم الاجتهاد والسياسات الشرعية في حقول السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والعلوم والفنون والأنظمة وسواها؛ لم يكن لها في دراسات الفكر الإسلامي اللاحق نصيب يذكر، بسبب انهيار دولة التزام السياسة الإسلامية الراشدة، وعزلة أصحاب الفكر وتغلّب أطماع بقايا العصبيات والجاهليات والحضارات والملل غير الإسلامية على الحكم. لذلك لم تقم بالمعنى العلمي الصحيح للعلوم والدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية قائمة في رحاب الفكر الإسلامي وعلى أساس من منظور إسلامي حتى اليوم، كما لم يطور الفكر والمعرفة الإسلامية أدواتها المنهجية المتكاملة، المطلوبة لتحقيق فهم الواقع والنظر في الحياة، بما يناسب على وجه الخبرة والحقيقة الغايات والمقاصد الإسلامية.

ولم يذهب الفكر الإسلامي حتى اليوم بعيداً في ميدان المنهجية العلمية اللازمة

(١١١) آل عمران: ١١٠.

لهذه الأغراض ، عن مجرّد تسجيل الأمهات والمبادئ المنهجية الكبرى ، التي اهتدى بهديها الصدر الأول في نظراته وتأمّلاته واجتهاداته وتكوين سياساته ومؤسساته ، وهي ما تعرف باسم الأصول الثانوية ، كالمصلحة المرسلة ودفع الضرر والعرف والاستحسان والاستصحاب . واقتصر جهد الفكر الإسلامي على يد الآباء من علماء السلف على العمل في ساحة النص ، والعناية به ، ووصفه وضبطه ، وتأصيله وبناء العلوم اللازمة له . فكانت علوم القرآن والتفسير والحديث والرواية والفقه والأحكام واللغة والآداب . وكان علم الفقه والأحكام هو مجال مشاركات العلماء بتأملاتهم الاجتهادية الفردية الذاتية ، بقدر ما هيأته لهم ظروف النشأة وخبرات الفقيه الذاتية دون تأهيل منهجي يذكر في هذه المجالات .

إنه لابدّ لنا لتحقيق شمولية الفكر الإسلامي والمنهج الإسلامي حتى يعطي ثماره وتوجيهه لمجالات الحياة الإنسانية كافة ، أن نعيد النظر في فهم منهجيته وعلومها ووسائلها والتفريق بين مصادر المعرفة ووسائل المعرفة ومجالات نظر المعرفة .

لابدّ للمفكرين المسلمين من أن يقوموا ببناء المناهج الخاصة بكل مجال وكل علم من تلك العلوم الحياتية والاجتماعية ، وذلك حتى يمكن للفكر الإسلامي أن يؤدي دوره في بناء تلك العلوم ، وأن يقوم بالدراسة والنظر والتأمل على أسس علمية منظمة يمكن تسخيرها ، ولتوليد الحلول والأنظمة والبدائل ، وضبط النتائج والإنجازات . لا مجال للمؤسسة العلمية الإسلامية والجامعات الإسلامية في أن تستمر محصورة في علوم النصوص وأن تنعزل عن مجالات علوم الاجتماع والتقنيات الإنسانية ، فكل هذه المجالات المختلفة إنما هي جوانب مختلفة لحياة الإنسان ونشاطه ، وكلّها مجال لتوجيه الإسلام وغاياته ومقاصده ولا غنى لها عنه .

إن المنطلق الأساسي للمنهجية الإسلامية للمعرفة يقوم من جانب علماء الإنسانيات المسلمين بالثوبة إلى رشدهم ومعرفة موضع الوحي وهدايته الكليّة مصدراً للمعرفة والتوجيه في مجال دراساتهم ، كما أن على علماء دراسات الوحي الإسلامي معرفة موقع العقل والفطرة منها وما أودع الله في العقل والفطرة من السنن والنواميس التي هي أساسية لفهم معاني الوحي ودلالاته ووضعه في موضعه الصحيح في حياة الإنسان ، وبالتالي فعلى هؤلاء العلماء استخدام وسائل البحث العلمي المنهجي التحليلي والتجريبي الذي طوّره علماء الإنسانيات والتقنيات الذي يتسم بالانضباط والتحليل

والدقة والواقعية في مجال دراسات الوحي وفهم مقاصدها ومعانيها وعلاقتها بالفطرة والواقع بالشكل والقدر الملائمين لذلك المجال من مجالات المعرفة ، وبذلك تتكامل مصادر المعرفة الإسلامية في الوحي والعقل والفطرة والكون وذلك هو السبيل العملي لبناء منهجية علمية إسلامية وقيام معرفة وعلوم إسلامية متميزة .

ولوضع المقدّمات الإسلامية الأساسية في مختلف مجالات الدراسات والعلوم الإنسانية والتقنية التي تمثّل المقاصد والغايات والتوجهات والقيم والأحكام الإسلامية ، لابدّ للمفكر الإسلامي ، من تصنيف نصوص الإسلام بدءاً بالقرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة ، وكذلك نفائس التراث الجيدة التي تثري بصحّة مؤداها ، وعمق نظرتها، وأن تُستَبعد وتُصفّى الأعمال التي بُنيت على أساس من مطامع السياسة ، ومن تأثير الخرافات والخزعبلات والأوهام والإسرائيليات التي تسللت إلى كثير من أعمال التراث في عصوره المتأخرة . وأن يكون هذا التصنيف على أساس ما تمليه الرؤية الإسلامية المعاصرة في مجالات الحياة والمجالات العلمية .

فهذا التصنيف ضروري حتى يمكن أن يطلع على النصوص التراثية الدارسون والباحثون وأصحاب الاختصاص من المفكرين والمثقفين المسلمين ، ويتعرّفوا منها ـ في شمولية ـ على كليات الإسلام وغاياته وأهدافه وقيمه ومبادئه ، ويقوموا على ضوئها بالعمل المبدع في مجالاتهم المختلفة بحسب ما يمليه واقع الحاجة والتحديات المعاصرة في هذه المجالات .

إن الأسس والمقدّمات الإسلامية في مختلف المجالات والعلوم وفنون المعرفة إنما تمثّل الرؤية الإسلامية ، وقاعدة العطاء والتميز الإسلامي ، ولابدّ للمفكّرين المسلمين من بناء هذه المقدّمات والأسس ، وليُقابلوا بذلك تحدّياً لابدّ للفكر الإسلامي المعاصر من مواجهته بشجاعة وجدية .

والفكر المسلم إنما يعني الالتزام بالغايات والمقاصد والقيم الإسلامية المستمدة من مصدر الوحي والرسالة الربانية . والمسلم يؤمن ويعتزّ ويشعر بقيمة هذه الرؤية والمفاهيم والمقاصد والقيم الإسلامية .

ولكنّ واقع العالم الإسلامي الحضاري وتاريخه المتأخر يجعله في عناء وحرج ، ولا يجد في الفكر الإسلامي ولا في واقع الدراسات والعلوم الإسلامية غناء لحاجته

وتحدّياته ، بل لعلّه يجد في حالة الفكر الإسلامي المحدودة المتدهورة مصدراً لمزيد من الحيرة والحرج والتمزق ، بين رؤية عامة غائمة يؤمن بها ولا يجد لها بديلاً ، وبين مادة وفكر مختلط مشوش جامد عاجز لا وسيلة له إلا التقليد والتلفيق وعيش العالة على فكر الآخرين وإنتاجهم .

ينبغي على العلماء والمفكرين المسلمين أن ينظروا في النصوص الإسلامية ، ونصوص السنّة النبوية المطهرة منها بخاصة ، وأن يقدّموا الصحيح منها شكلاً وموضوعاً على أساس ميسر التصنيف والضبط ، يعرف معه الدارس قيمة ما يقرأ ومصداقيته ، بعيداً عن الإسرائيليات والمنحولات وكل ما دخل عليها من ضعف ، على غير شاكلة القرآن وروح الإسلام وأداء الرسول ﷺ ، وبعيداً عن ألغاز الدراسات الأكاديمية وأحاجيها وحلقاتها المفرغة ، التي تجعل النصوص أمام الدارسين ـ من غير أصحاب الاختصاص الدقيق ـ أقرب إلى المواد الزئبقية ، تنفلت من اليد كما يتفلت الماء من الشِباك ، ولا تترك خلفها غير إحساس بالفشل والعجز وقلّة الزاد .

وإلى جانب شمولية عرض النصوص وتصنيفها وضبطها وتنقيتها على أساس منهجي واضح الرواية والشكل والموضوع ، فمن المطلوب أيضاً أن ييسر عرض هذه النصوص بدراسات تاريخية موضوعية ، عن عهد الرسالة التي نزلت فيها والظروف الموضوعية والأوضاع الاجتماعية والحضارية التي نزلت فيها الرسالة واستجابت لها الممارسات الأولى ، والنتائج التي حققتها جهود الصدر الأول .

الوضوح والشمولية والضبط وفهم الخلفية التاريخية فيما يخص النصوص الإسلامية ، وخاصة نصوص السنّة وسيرة الصدر الأول للإسلام ، كلها وسائل لابدّ منها لفهم النصوص وإدراك مقاصدها ومنجزاتها وقطع السبل على أخطاء الفهم الجزئي ومهاترات الجهل العلمي . هذا التصنيف والتيسير والضبط خطوات ضرورية للوصول إلى إدراك الأسس وبناء المقدّمات الإسلامية في كل مجال . وإلى انطلاق العقل المسلم ـ في ضوء مواقعه وإمكاناته وتحدياته ـ إلى الأداء والإبداع والبناء الإسلامي الحضاري الخيّر بما يحقّق غايات رسالة الإسلام .

ليس لنا اليوم ـ وهذه حال المعرفة الإسلامية والفكر الإسلامي المعاصر ـ أن نلوم المراقبين الذين تختلط عليهم بجهل وغبش تجربة الإسلام ، فيسوون بينها وبين

تجارب الغرب الدينية المليئة بالخرافات والخزعبلات والشطحات ، وما نتج عنها من كهانات وإساءات ومفاسد ، بطشت بأصحاب العقول والحقوق ، فيسيئون الفهم ويخطئون الأسباب ويضلون الطريق إلى النتائج .

إن من يطّلع من المثقفين المسلمين ومن سواهم ـ من غير أصحاب الصنعة والاحتراف في شؤون النصوص ـ على كثير ممّا تحويه الكتب التي تتداولها الأيدي وتتعامل مع النصوص ؛ لا يعجب إذا لم يجد في تلك الكتب الزاد المطلوب ، ولا التوجيه المرغوب ؛ ولذلك فلا غرابة في عجز جمهور المتحمسين من المثقفين المسلمين عن العطاء العلمي والفكري الجاد المبدع ، وعدم قدرتهم على تقديم الرؤى والبدائل الأصيلة الرائدة اللازمة لاستنقاذ الأمة وإنجاح دورها الحضاري المطلوب .

إذا شئنا أن نحقق الشمولية الإسلامية فيجب أن يبدأ العلماء والمفكرون والمثقفون المسلمون بالإعداد السليم لوضع المقدّمات الإسلامية العلمية المنهجية في كل علم ومجال ، وأن ننظر إلى ما في أيدينا من علوم ومعارف نظرة فاحصة نستصفي منها ما هو صحيح وما فيه خير للإنسان قبل أن نتوقع لجهودنا الكمال والتفوق والعطاء الأصيل الرائد إن شاء الله .

إن الدائرة العلمية الغربية المعاصرة وأتباعها من العلمانيين المسلمين يضعون الإسلام والأديان الأخرى في ميزان واحد ومقولة واحدة ؛ وهي أن الأديان جميعها بما فيها الإسلام يجب أن لا يكون لها علاقة بأنظمة الحياة والمجتمع وسياسات تسييرها ، لأن هذه الأديان إنما هي فكر تاريخي ، ومقولات اسطورية ، تتعلق بحياة العصر ، ويجب أن تحدّ هذه الأديان بموضع المعابد والمشاعر الشخصية والطقوس الكهنوتية .

وإذا صدق هذا القول في الأديان الأخرى لما قد يكون في مادتها وكتبها المقدسة وعقائدها من أسطورة وخرافة وتخريف وتحريف يعكس صدق مآخذ الناقدين العلمانيين لأحوالها وفكرها ؛ فإن ذلك لا ينطبق على دين الإسلام ، ولكن من المهم أن الأسلوب الذي يقدم به الإسلاميون قضيتهم لا يكفي لقسر الدائرة العلمية المعاصرة على رؤية حقيقة الإسلام ، ومواضع الخلاف والتمييز بينه وبين الأديان الأخرى ، فمجرّد تأكيد الإيمان برسالة الإسلام وتميّزه وسموّه لا يكفي لتوضيح الرؤية وإشاعة القناعة بعطاء الإسلام . هذه الغاية السامية يمكن تحقيقها فقط بالجهد العلمي المنهجي

في بناء المعرفة الإسلامية ، وفي تنقية كتب النصوص وإعادة مادتها في شمولية ووضوح وضبطها تاريخياً ولغوياً لتيسير فهمها وفهم دلالاتها ، حتى يتمكّن الدارس من استخلاص المقدّمات العقيدية والفكرية ، في مختلف مجالات العلم والمعرفة والحياة .

ثم إن طرح تلك النصوص والمقدّمات للفحص والتجريب والمقارنة يزوّد الدارس بالوسيلة لتحويل الفكر إلى واقع علمي وحياتي حي فعّال يفرض وجوده واحترامه على العقول والنظم الاجتماعية والحضارية ، فيصبح الأداء الاسلامي المبدع ـ وليس مجرّد الحماس العاطفي ـ هو القول الفصل والحجّة البينة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾(١١٢) .
﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾(١١٣) .
﴿ أفمن يمشي مُكِبّاً على وجهه أهدى أم من يمشي سويّاً على صراط مستقيم ﴾(١١٤) .
﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلّه ﴾(١١٥) .
﴿ ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾(١١٦).

---

(١١٢) الأنفال : ٢٤.
(١١٣) النحل : ٨٩.
(١١٤) الملك : ٢٢.
(١١٥) الصف : ٩.
(١١٦) فصّلت : ٣٣.